السلطان
عبد الحميد الثاني

وفكرة الجامعة الإسلامية
وأسباب زوال الخلافة العثمانية

تأليف

د. علي محمد محمد الصلابي

دار الأصالة

دار الأصالة

دار الأصالة

رقم الإصدار 276
الترقيم الدولي 978-625-6250-59-8

اسم الكتاب السلطان عبد الحميد الثاني
اسم المؤلف د. علي محمد محمد الصلابي

رئيس التحرير رجب صونكول

الاخراج الفني AsaletAjans
ajans@asaletyayinlari.com.tr

الطبعة الأولى - يناير 2025 م / رجب 1446 هـ

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.
Sertifika No: 45522
Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11
Bağcılar/İSTANBUL

دار النشر دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة
Asalet Eğitim Danışmanlık
Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret
Sertifika No: 40687
Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.
Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler
Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE
Tel: +90 212 511 85 47
www.asaletyayinlari.com.tr
asalet@asaletyayinlari.com.tr

كما أن إصداراتنا متاحة على منصّتي

Google Play Books
amazonkindle

Copyright © 2025
دار الأصالة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة – إسطنبول – © تركيا 2025
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف

السلطان
عبد الحميد الثاني

وفكرة الجامعة الإسلامية
وأسباب زوال الخلافة العثمانية

تأليف
د. علي محمد محمد الصلابي

دار الأصالة

الإهداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى أهدي هذا الكتاب،

سائلا المولى عَزَّوَجَلَّ بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى؛ أن يكون خالصا لوجهه الكريم،

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

[الكهف: ١١٠]

مقدِّمة

إنَّ الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله؛ فلا مضلَّ له، ومن يضلل؛ فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمَّداً عبده، ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت ولك الحمد بعد الرضا.

أما بعد:

فهذا الكتاب جزء من كتابي «الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط»، وقد أفردته من باب الفائدة وتسهيل وصول الحقائق التاريخية إلى المسلمين لعلهم يستخلصون منها الدروس والعبر، ويستفيدون منها في صراعهم مع خصوم وأعداء الإسلام، فهذا الكتاب يتحدث عن الجهود العظيمة التي قام بها السُّلطان عبد الحميد خدمةً للإسلام، ودفاعاً عن دولته، وتوحيداً لجهود الأمَّة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في معترك

السِّياسة الدَّوليَّة في زمن السُّلطان عبد الحميد. ويفصِّل الكتاب في الوسائل الَّتي اتَّخذها السُّلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلاميَّة، كالاتصال بالدُّعاة، وتنظيم الطُّرق الصوفية، والعمل على تعريب الدَّولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خطِّ سكَّة حديد الحجاز، وإبطال مخطَّطات الأعداء.

ويركِّز الكتاب على جهود الصُّهيونيَّة العالمية في دعم أعداء السُّلطان عبد الحميد كالمتمرِّدين الأرمن، والقوميِّين البلقان، وحركة حزب الاتحاد والتَّرقي، والوقوف مع الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العثمانيَّة، وكيف استطاع أعداء الإسلام عزل السُّلطان عبد الحميد؟ وما هي الخطوات الَّتي اتُّخذت للقضاء على الخلافة العثمانية؟ وكيف صُنِعَ البطل المزيَّف مصطفى كمال؟ الَّذي عمل على سلخ تركيا من عقيدتها، وإسلامها، وحارب التَّديُّن، وضيَّق على الدُّعاة، ودعا إلى السُّفور، والاختلاط.

وفي نهاية الكتاب يهتمُّ الباحث بإبراز أسباب السُّقوط من المنظور القرآني، ليبيِّن للقارئ: أنَّ أسباب السُّقوط عديدةٌ، منها:

انحراف الأمَّة عن مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء، والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشِّرك، والبدع، والانحرافات، وظهور الصُّوفيَّة المنحرفة، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي، تحمل عقائد، وأفكاراً، وعباداتٍ بعيدةً عن كتاب الله، وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وينبِّه القارئَ المسلم عن الفِرق الضَّالة المحسوبة على الإسلام، ويتحدَّث الكتاب عن غياب القيادة الرَّبَّانيَّة كسببٍ في ضياع الأمَّة، وخصوصاً عندما يصبح علماؤها ألعوبة بيد الحكَّام الجائرين،

ويتسابقون على الوظائف، والمراتب، وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف أصيبت العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتَّحجُّر؟

وكيف اهتمَّ العلماء بالمختصرات، والشُّروح، والحواشي، والتَّقريرات؟ وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقيَّة المستمدَّة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ ورفض كثيرٌ من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدَّعوة لفتح بابه تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر، وتصل عند المقلِّدين، والجامدين إلى حدِّ الكفر، وتعرَّض الكتاب للظُّلم الَّذي انتشر في الدَّولة، وما أصابها من التَّرف، والانغماس في الشَّهوات، وشدَّة الاختلاف، والتَّفرُّق، وما ترتَّب عن الابتعاد عن شرع الله من آثار خطيرة، كالضَّعف السياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، وكيف فقدت الأمَّة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها؟ وكيف استُعمرت، وغُزيت فكريًّا نتيجةً لفقدها لشروط التَّمكين، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة، والمعنوية، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم، وسقوطها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إن هذا الكتاب محاولة جادة لتسليط الأضواء على السلطان عبد الحميد الثاني وإزالة المغالطات والأكاذيب التي ألصقت بسيرته، كما أن هذا الكتاب يذكر القارئ المسلم بأهمية معرفة عوامل نهوض الدول وأسباب سقوطها لكي يستفيد منها في مسيرته الدعوية والحركية والعلمية، وفي سعيه الحثيث لإعزاز

دين الله ونصرته، وأرجو من الله تعالى أن يكون هذا العمل لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً، وأن يثيبني على كلِّ حرفٍ كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إِخواني الَّذين أعانوني بكلِّ ما يملكون من أجل إِتمام هذا الكتاب!

«**سبحانك اللَّهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إِله إِلا أنت، أستغفرك، وأتوب إِليك**».

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

الفقير إِلى عفو ربِّه، ومغفرته

علي محمَّد محمَّد الصَّلابي

عصر السُّلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأوَّل

السُّلطان عبد الحميد (١٢٩٣ - ١٣٢٦ هـ-١٨٧٦ - ١٩٠٩ م)

المبحث الثَّاني

الجامعة الإسلاميَّة

المبحث الثَّالث

السُّلطان عبد الحميد واليهود

المبحث الرَّابع

السُّلطان عبد الحميد وجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي

المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني

المبحث السادس

حكم الاتِّحاديِّين ونهاية الدَّولة العثمانيَّة

المبحث السابع

أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة

المبحث الأوَّل
السُّلطان عبد الحميد
(١٢٩٣ - ١٣٢٦ هـ. ١٨٧٦ - ١٩٠٩ م)

السُّلطان عبد الحميد هو السُّلطان الرَّابع والثَّلاثون من سلاطين الدَّولة العثمانيَّة. تولَّى عرش الدَّولة وهو في الرَّابعة والثَّلاثين من عمره؛ إذ ولد في ١٦ شعبان عام ١٢٥٨هـ ـ ١٨٤٢م.

ماتت والدة السُّلطان عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزَّوجة الثَّانية لأبيه، وكانت عقيمـًا، فأحسنت تربيته، وحاولت أن تكون له أمّـًا، فبذلت له من حنانها، كما أوصت بميراثها له. وقد تأثَّر السُّلطان عبد الحميد بهذه التَّربية، وأعجب بوقارها، وتديُّنها، وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاسٌ على شخصيَّته طوال عمره.

تلقَّى عبد الحميد تعليمـًا منتظمـًا في القصر السُّلطاني على أيدي نخبةٍ مختارةٍ من أشهر رجالات زمنه علمـًا، وخلقـًا. وقد تعلَّم من اللُّغات العربيَّة، والفارسيَّة، ودرس التَّاريخ، وأحبَّ الأدب، وتعمَّق في علم التَّصوُّف، ونظم بعض الأشعار باللُّغة التُّركيَّة العثمانيَّة[١].

وتـدرَّب على استخدام الأسلحة، وكان يتقن استخدام السَّيف، وإِصابة الهدف بالمسدَّس، ومحافظـًا على الرِّياضة البدنيَّة، وكان مهتمّـًا بالسِّياسة العالميَّة، ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعنايةٍ فائقةٍ، ودقَّةٍ نادرةٍ.

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، محمَّد حرب، ص ٣١.

أوَّلاً: زيارته إلى أوربَّة مع عمِّه السُّلطان عبد العزيز:

قام السُّلطان عبد العزيز بزيارة أوربَّة يرافقه وفدٌ عثمانيٌّ رفيع المستوى، وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الَّذي ظهر أمام الأوربيِّين بملابسه البسيطة، وسيرته الحميدة في العفَّة[١]، وقد استعدَّ الأمير عبد الحميد لهذه الرِّحلة بمطالعاتٍ واسعةٍ، فإنَّه كان دقيقًا في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء الَّتي رآها في الغرب، ولقد التقى الوفد العثمانيُّ بساسة ذلك العصر في أوربَّة مثل: نابليُّون الثَّالث في فرنسا، والملكة فكتوريا في إنجلترا، وليوبلد الثَّاني في بلجيكا، وغليوم الأوَّل في ألمانيا، وفرنسوا جوزيف في النِّمسا[٢]، وقد سبقت تلك الرِّحلة زيارته مع السُّلطان عبد العزيز إلى مصر، وانتبه أثناء وجوده في مصر إلى الزَّيف الكاذب للبريق الأوربيِّ، والأخذ هناك بالشَّكليَّات الأوربيَّة، ممَّا جعل مصر تستدين، وتغرق في الدُّيون، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي إسماعيل باشا في إسرافه، ومحاولته جعل مصر قطعةً من أوربَّة. وأمَّا رحلته إلى أوربَّة؛ فقد استغرقت من ٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م. زار الوفد العثماني: فرنسا، وإنجلترا، وبلجيكا، والدَّولة النِّمساويَّة المجريَّة.

وفي هذه الرِّحلة الأوربيَّة، تفتَّح ذهن عبد الحميد إلى أمورٍ كثيرةٍ، انعكست على فترة حكمه كلِّها بعد ذلك، وهذه الأمور هي:

١ ـ الحياة الأوربيَّة بكلِّ ما فيها من طرق معيشةٍ غريبةٍ، وأخلاقيَّاتٍ مختلفة، وشكليَّاتٍ.

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، محمَّد حرب، ص ٣٣.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

٢ ـ التَّطوُّر الصِّناعي، والعسكري، وبخاصَّةٍ في القوَّات البرِّيَّة الفرنسيَّة، والألمانيَّة، وفي القوَّات البحريَّة البريطانيَّة.

٣ ـ ألاعيب السِّياسة العالميَّة.

٤ ـ تأثير القوى الأوربيَّة على سياسة الدَّولة العثمانيَّة، وبخاصَّةٍ تأثير نابليون الثَّالث على عمِّه السُّلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير علي باشا. رغم أنَّ السُّلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً: أنَّه تحت تأثير أيِّ قوَّةٍ غربيةٍ[١].

اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرِّحلة: أنَّ فرنسا دولة لهوٍ، وإنجلترا دولة ثروةٍ، وزراعةٍ، وصناعةٍ. أمَّا ألمانيا فهي دولة نظامٍ، وعسكريَّةٍ، وإدارةٍ، وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني إليها ـ عندما أصبح سلطاناً ـ ولقد تأثَّر الأمير عبد الحميد بهذه الرِّحلة، ودفعه ذلك التَّأثُّر إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليميَّةٍ، وصناعيَّةٍ، ووسائل اتِّصالاتٍ، وعسكريَّةٍ، والأمثلة على ذلك كثيرةٌ، منها: شراؤه غوَّاصتين، وكان سلاح الغوَّاصات جديداً. وأدخل التِّلغراف إلى بلاده من ماله الخاصِّ، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصريَّة، وأدخل إلى البلاد أوَّل سيَّارةٍ، وأوَّل درَّاجةٍ، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنَّه وقف بحزمٍ ضدَّ سريان الفكر الغربي في البلاد[٢].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٥٦.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٥٧.

أثَّرت رحلة عبد الحميد إلى أوربة أيضـًا في اتِّباعه سياسةً استقلاليَّةً تجاه أوربـة، ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أيِّ حاكمٍ أوربـيٍّ عليه، مهما كانت صداقته، ومهما كانت درجة التَّقارب بين بلده، وبين الدَّولة العثمانيَّة.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرِّحلة الحوار الَّذي كان يجريه فؤاد باشا الصَّدر الأعظم العثماني مع بعض الزُّعماء الأوربيِّين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرِّحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فردَّ الباشا قائلاً: (بالثَّمن الَّذي اشتريناها به). وكان يعني بذلك: أنَّ العثمانيِّين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عامـًا كلُّها حروب.

وسُئل فؤاد باشا أيضـًا: (ما هي أقوى دولة في العالم الآن؟).

فردَّ قائلاً: (أقوى دولة الآن هي الدَّولة العثمانيَّة. ذلك لأنَّكم تهدمونها من الخارج، ونحن نهدمها من الدَّاخل. ولم يستطع كلانا هدمها)[١].

تعلَّم عبد الحميد من هذا درسَ القدرة على إسكات القوى الَّتي تودُّ تحطيم الدَّولة العثمانيَّة. وتعلَّم ذكاء الحوار السِّياسي، وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرِّحلة ٢٥ عامـًا[٢].

ثانياً: بيعته للخلافة وإعلان الدُّستور:

بويع بالخلافة بعد أخيه مـراد، يوم الخميس ١١ شعبان ١٢٩٣هـ ـ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م. وكان عمره آنـذاك أربعـًا وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٥٨.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

الوزراء، والأعيان، وكبار الموظَّفين من مدنيِّين، وعسكريِّين في سراي طوبقبو. وهنَّأه بالخلافة كذلك رؤساء الطَّوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السَّلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. وأقيمت الزِّينات بجميع جهات إسطنبول ثلاثة أيَّامٍ، وأرسل الصَّدر الأعظم برقيَّات إلى دول العالم لإعلامها بذلك[١].

وكان السُّلطان عبد الحميد قد عيَّن مدحت باشا صدراً أعظم، ثمَّ أعلن في ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) الدُّستور الَّذي يضمن الحرِّيَّات المدنيَّة، وينصُّ على مبدأ الحكومة البرلمانيَّة.

ووفق هذا الدُّستور كان البرلمان يتكوَّن من مجلسين: مجلس النُّوَّاب، أو المبعوثين، ثمَّ مجلس الأعيان أو الشُّيوخ[٢].

وقد تعرَّض السُّلطان عبد الحميد في بداية حكمه إلى استبداد الوزراء، واشتداد سياستهم التَّغريبيَّة بقيادة جمعيَّة العثمانيِّين الجدد، والَّتي كانت تضمُّ النُّخبة المثقَّفة الَّتي تأثَّرت بالغرب، والَّتي استطاعت الأيدي الماسونيَّة أن تجنِّدهم لخدمة أهدافها، وقد بلغ من استبداد الوزراء بالحكم أن كتب مدحت باشا ـ وهو في مقام الرِّئاسة لنخبة العثمانيِّين الجدد ـ إلى السُّلطان عبد الحميد في أوَّل عهده بالعرش (١٨٧٧م): (لم يكن غرضنا من إعلان الدُّستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق، وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع النَّاس على حرِّيَّتهم، وحقوقهم،

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة في التَّاريخ الإسلامي الحديث، ص ١٨٣.
(٢) المصدر السَّابق، ص ١٧٨.

حتَّى تنهض البلاد إِلى مدارج الارتقاء، وإِنِّي أطيع أوامركم إِذا لم تكن مخالفةً لمنافع الأمَّة...)[١].

ويقول السُّلطان عبد الحميد في هذا: (ولقد وجدت مدحت باشا ينصِّب نفسه آمراً ووصيّاً عليَّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروطيَّة «الدِّيمقراطيَّة» وأقرب إِلى الاستبداد)[٢].

وكان مدحت باشا، وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر، قال السُّلطان عبد الحميد في مذكِّراته: (... ومن المعروف أنَّ أحرار ذلك العهد من شعراء، وأدباء اجتمعوا مساءً يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدَّثوا في أمور الدَّولة، بل في أمور السُّكر، والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه، ومشهورٌ عنه هذا، والتقت نشوة الخمر بالنَّشوة الَّتي بعثها إِعلان القانون الأساسيِّ، وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل؛ خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتَّى لا يقع على الأرض. وبينما كان يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا، وهو يؤرجح لسانه في فمه «بتأثير الخمر»:

ـ يا باشا! مَنْ يستطيع الآن، وبعد كلِّ ما وصلتُ إِليه أن يبعدني عن منصبي؟! مَنْ؟! قل لي كم عاماً سأبقى في الصَّدارة العظمى؟

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٥٩.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٦٠.

ردَّ عليه طوسون باشا قائلاً:

ـ إذا بقيتم على هذا الحال؛ فليس أكثر من أسبوع)[١]!

(لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاصِّ به يفشي أدقَّ أسرار الدَّولة، وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التَّالي بين أهالي إسطنبول. وفي إحدى اللَّيالي تحدَّثَ مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهوريَّة في الدَّولة العثمانيَّة، وأنَّه سيصبح رئيساً للجمهوريَّة العثمانيَّة الجديدة، ثمَّ إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثَّالث بفرنسا)[٢].

وكان مدحت باشا متَّهماً بقتل السُّلطان عبد العزيز، وشكَّل السُّلطان عبد الحميد لجنةً للتَّحقيق في ذلك ثمَّ قدم المتَّهمين إلى المحكمة الَّتي أدانتهم، وحُكِم على مدحت باشا بالإعدام، وتدخل السُّلطان عبد الحميد، وخفَّض الحكم إلى السِّجن، ثم نفي إلى الحجاز حيث مقرُّ السِّجن العسكري هناك.

كان الدُّستور ينصُّ على فصل السُّلطات من حيث الشَّكل لا المضمون، كما أنَّ التَّغييرات الَّتي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التَّطوُّر، فلم يفكِّر أحدٌ في تقليص حقِّ السُّلطان في السِّيادة، كما نصَّ الدُّستور على أنَّ شخص السُّلطان مصونٌ لا يُمَسُّ، وأنَّه لا يسأل أمام أحدٍ عن أعماله، ومن ثمَّ كان الدُّستور مرتهناً بشخصه[٣]. فله وحده حقُّ تعيينٍ، وإقالة الوزراء، كما أنَّه

(١) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، محمَّد حرب، ص ٧٧.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) انظر: في أصول التَّاريخ العثمانيِّ، ص ٢٣٤.

هو الَّذي يعقد المعاهدات، ويعلن الحرب، ومعاهدات الصُّلح، وهو القائد العامُّ للقوَّات المسلَّحة، ومن حقِّه كذلك إِصدار جميع القوانين في شتَّى المجالات دون الرُّجوع إِلى البرلمان. وهكذا ظلَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني (١٢٩٣ - ١٣٢٧هـ - ١٨٧٦ - ١٩٠٩م) يتمتَّع بالسُّلطة الَّتي سبق لأسلافه أن تمتَّعوا بها، بحيث إِنَّ مدحت باشا ذاته كان أوَّل الضَّحايا، كما أنَّ الصَّلاحيَّات الواسعة الَّتي منحها الدُّستور للسُّلطان حدَّت من سلطة رئيس الوزراء؛ بحيث لم يتح له أن يلعب سوى دورٍ ثانويٍّ في تسيير دفَّة الحكم[١].

ونصَّ الدُّستور على حرِّيَّة أعضاء البرلمان في إِبداء آرائهم، وفي التَّصويت، وكان لا يمكن محاكمتهم إِلا إِذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدَّد الدُّستور اللُّغة التُّركيَّة العثمانيَّة باعتبارها اللُّغة الرَّسميَّة للدَّولة الَّتي يجري بها الحديث في كلِّ الجلسات، كما نصَّ أن يكون التَّصويت سرِّيًّا، أو علنيًّا بحسب الظُّروف، وعلى أن يقرَّ مجلس النُّوَّاب الميزانيَّة دون تدخُّلٍ من جانب السُّلطان بعكس الحال فيما يتعلَّق بالقوانين العاديَّة.

وأمَّا بالنِّسبة لحقوق الأفراد؛ فقد أعلن الدُّستور: أنَّ العثمنة هي السِّياسة الرَّسميَّة للدَّولة في إِطار مبدأ المساواة الَّذي نصَّت عليه التَّنظيمات، فقد خلع الدُّستور صفة العثمانيَّة على كلِّ رعايا الدَّولة أيًّا كان دينهم، ونصَّ على تمتُّعهم بالحرِّيَّة الشَّخصيَّة، وعلى تساوي كلِّ العثمانيِّين أمام القانون، وعلى منحهم نفس الحقوق مع إِلزامهم بنفس الواجبات. ونصَّ الدُّستور كذلك على استقلال

(١) المصدر السَّابق نفسه.

القضاء، وأبقى على المحاكم الشَّرعيَّة على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلِّقة بشؤونهم الدِّينيَّة[١].

وقد أمر السُّلطان عبد الحميد بأن يوضع الدُّستور موضع التَّنفيذ، وبأن تجرى انتخاباتٌ عامَّةٌ، كانت الأولى من نوعها في التَّاريخ العثماني، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل المسلمين بـ (٧١) مقعداً والنَّصارى بـ (٤٤) مقعداً، واليهود بـ(٤) مقاعد، واجتمع أوَّل برلمان عثماني في ٢٩ مارس عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وكان مجلس الأعيان والشُّيوخ يتكوَّن من ٢٦ عضواً بالتَّعيين من بينهم ٢١ مسلمـًا، في حين كان مجلس النُّوَّاب يتكوَّن من مئة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نـوَّاب العرب بـدورٍ مهمٍّ خلال المناقشات، غير أنَّ مجلس المبعوثين كانت مدَّته قصيرةً؛ فقبل أن يتمَّ المجلس دورة انعقاده الثَّانية، طلب النُّوَّاب في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) أن يمثّل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدِّفاع عن أنفسهم من الاتِّهامات الموجَّهة إِليهم، فما كان من السُّلطان عبد الحميد إِلا أن عطَّل المجلس، وأمر بعودة النُّوَّاب إِلى بلادهم، وقام بنفي وإِبعاد البارزين منهم[٢].

وبذلك بلغت مدَّة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثَّانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يومـًا، ولم يُدْعَ هذا المجلس للاجتماع ثانيةً لمدة ثلاثين عامـًا، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرَّة واحدةً[٣].

---

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إِسماعيل ياغي، ص ١٨٠.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٨١.

(٣) انظر: البلاد العربيَّة والدَّولة العثمانيَّة، ساطع الحصري، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

لقد كان السُّلطان عبد الحميد مضطراً في إِعلان الدُّستور بسبب الضُّغوط الَّتي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا، ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل المجلس.

إِنَّ عبد الحميد الثَّاني كان ضدَّ الدِّيمقراطيَّة، والحكم بالدُّستور الَّذي يعرف في المصطلح العثماني باسم «المشروطيَّة» أي: الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطاته، على اعتبار: أنَّ هذا فكرٌ وافدٌ من الغرب، ولذلك كان ضدَّ المنادين به، ورائدهم مدحت باشا، وانتقد وزيره هذا بقوله (لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوربَّة، لكنَّه لم يدرس أسباب هذه المشروطيَّة، ولا تأثيراتها، الأخرى. أقراص السُّلفات لا تصلح لكلِّ مرضٍ ولكلِّ بنيةٍ. وأظنُّ أنَّ أصول المشروطيَّة لا تصلح لكلِّ شعبٍ، ولكلِّ بيئةٍ قوميَّةٍ. كنت أظنُّ أنَّها مفيدةٌ، أمَّا الآن فإِنِّي مقتنعٌ بضررها)[١].

كان للسُّلطان حججه في هذا، منها سوء تصرُّف المنادين بالدُّستور في أوَّل استجابة للسُّلطان لأفكارهم. من ذلك:

أن طلبت الحكومة من السُّلطان في وقت إِعلان السُّلطان للدُّستور أن يوقِّع على بعض قراراتٍ منها تعيين ولاةٍ نصارى في ولاياتٍ أغلب السُّكَّان فيها من المسلمين، وعلى قرارٍ بقبول طلبة من النَّصارى في الكلِّيَّة الحربيَّة العثمانيَّة الَّتي هي عماد الجيش العثماني، فرفض السُّلطان التَّوقيع، فما كان من مدحت باشا ـ وهو الوزير ـ إِلا أن قال للسُّلطان: (إِنَّ مقصدنا من إِعلان الدُّستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب جلالتكم أن تعرف واجباتكم)[٢].

---

(١) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، محمَّد حرب، ص ٨٠.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٩٥.

ومن الأسباب الَّتي يسوقها السُّلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدُّستوري قوله: (إِنَّ الدَّولة العثمانيَّة دولةٌ تجمع شعوبـًا شتَّى، والمشروطيَّة في دولةٍ كهذه تعني موت العنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الإنجليزي نائبٌ هنديٌّ واحدٌ؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائبٌ جزائريٌّ واحدٌ؟)[١].

ولم يغيِّر السُّلطان عبد الحميد موقفه تجاه الحكم الدُّستوري في دولته؛ حتَّى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ النَّاس يمارسون الحكم الدُّستوري، فيقول: (ماذا حدث عندما أعلنت المشروطيَّة؟ هل قلَّت الدُّيون؟ هل كثرت الطُّرق، والموانئ، والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقُّلاً، ومنطقـًا؟! وهل ساد الأمن الشَّخصيُّ؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهيَّةً؟ هل تناقصت الوفيَّات، وزادت المواليد؟ هل أصبح الرَّأي العامُّ العالميُّ الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ الدَّواء النَّافع يصبح سمّـًا زعافـًا إِذا كان في يد غير الأطبَّاء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإِنِّي لجدّ آسفٌ، فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي)[٢].

ويبيِّن السُّلطان عبد الحميد بأنَّ موقفه ليس دائمـًا تجاه الحكم الدُّستوري، فالظُّروف الَّتي كان يحكم فيها إِذا اختلفت؛ فستختلف وجهة نظره في الحكم الدُّستوري.

وفي هذا يقول: (ينبغي ألا يُظَنَّ أنَّ فكري واقتناعي دائمـًا ضدَّ الحكم الَّذي يعتمد على أصول المشروطيَّة)[٣].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٩٦.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

إنَّ السُّلطان عبد الحميد مرَّ عصره بظروفٍ عصيبةٍ، وأزماتٍ شديدةٍ، وتآمرٍ عالميٍّ على الدَّولة العثمانيَّة من الدَّاخل، والخارج، فشرع في إصلاح الدَّولة وفق التَّعاليم الإسلاميَّة لمنع التَّدخُّل الأوربيِّ في شؤون الدَّولة، وحرص على تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة، وقام بإبعاد الكتَّاب، والصَّحفيِّين عن العاصمة، وقاوم كلَّ الاتِّجاهات الغربيَّة المخالفة للحضارة الإسلاميَّة المجيدة في ولايات الدَّولة، واستطاع أن يشكِّل جهازاً استخباراتيّاً قويّاً لحماية الدَّولة من الدَّاخل، وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج، واهتمَّ بفكرة الجامعة الإسلاميَّة، وحقَّق بها نتائج عظيمةً، واهتزَّ الأوربيُّون من هذا التَّفكير الاستراتيجي العميق، وعملوا على تفتيتها.

لقد تكلَّم السُّلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته، وبيَّن الغرض منه، فقال: (حسب العرف العثماني، يتعرَّف السُّلطان على تفكير الرَّعيَّة، وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته، وقضاته من جانب، وعن طريق التَّكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها، ودراويشها من جانبٍ آخر، فيجمع كلَّ هذه الأخبار، ويدير البناء عليها.

جدِّي السُّلطان محمود الثَّاني وسَّع دائرة مخابراته بإضافة الدَّراويش الرُّحَّل إليها. كان ذلك عندما ارتقيتُ العرش، وعلى ذلك أستمرُّ.

علمتُ ذات يومٍ من «موسوروس باشا» سفيرنا في لندن: أنَّ الصَّدر الأعظم السَّابق: السَّرْ عسكر حسين عوني باشا تسلَّم نقوداً من الإنجليز. إذا كان الصَّدر الأعظم، وهو يحكم البلاد باسم السُّلطان يخون دولته، فإنَّ مخابراته لا بدَّ أن

تبلغ القصر على أنَّه يؤدِّي عمله على الوجه الأكمل، لذلك تكدَّرتُ، وتأثَّرتُ، وفي أثناء تلك الأيَّام قابلني محمود باشا، وأدلى إِليَّ ببعض معلوماتٍ عن بعض أعضاء «تركيَّا الفتاة» وكانت الأخبار الَّتي قدَّمها لي مهمَّة، سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت: أنَّه أنشأ مخابراتٍ خاصَّةً، واحتوى ـ بالنُّقود ـ أقارب لبعض الأشخاص من «تركيَّا الفتاة»، وهؤلاء كانوا يقابلون أقاربهم، ويسمعون منهم، ثمَّ يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيحٌ: أنَّه زوج أختي، إِلا أنَّه لا يصحُّ أن يقيم أحد باشوات الدَّولة مخابراتٍ مستقلَّة عن مخابرات الدَّولة. قلت له: أن يحلَّ جهازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرَّةً أخرى، وقد أحال إِليَّ جهازه هذا؛ وهو متضايقٌ كثيراً.

لا يمكن للدَّولة أن تكون آمنةً، إِذا تمكَّنت الدُّول الكبرى أن تجنِّد لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزيرٍ أعظم.

بناءً على هذا قرَّرت إِنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرةً، وهذا هو الجهاز الَّذي يسمِّيه أعدائي بالجورنالجية «الشُّرطة السِّرِّيَّة = المخابرات».

وكان ضروريّاً أن أعرف أن بين أعضاء جهاز الجورنالجيَّة «المخابرات» المخلصين الحقيقيِّين أشخاصاً مفترين، لكنِّي لم أصدِّق، ولم آخذ بأيِّ شيءٍ يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقُّقٍ دقيقٍ.

كان جدِّي السُّلطان سليم «سليم الثَّالث» يصيح قائلاً: «إِنَّ أيدي الأجانب تتجوَّل فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السُّفراء إِلى الدُّول الأجنبيَّة لنقل أساليب التَّقدُّم الأوربي، وعلينا إِرسال الرُّسل إِلى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلُّم ما وصلوا إِليه».

كنت أحسُّ أنا أيضًا بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنَّما في داخله، إنَّهم يشترون صدوري العظام، ووزرائي، ويستخدمونهم ضدَّ بلادي. كيف يحدث هذا؛ وهم الَّذين أنفقت عليهم من خزانة الدَّولة، ولا أستطيع معرفة ما يعملونه، وما يدبِّرون، ويُعِدُّون؟!

نعم، أنا أسَّست جهاز الجورنالجيَّة «المخابرات». وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدوري العظام يرتشون من الدُّول الأجنبيَّة مقابل هدم دولتهم، والتآمر على سلطانهم أسَّست هذا الجهاز لا ليكون أداةً ضدَّ المواطن، ولكن لكي يعرف، ويتعقَّب هؤلاء الَّذين خانوا دولتي، في الوقت الَّذي كانوا يتسلَّمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الَّذي كانت النِّعمة العثمانيَّة تملؤهم حتَّى حُلُوقهم)[1]!!

لقد وُجِّهت للسُّلطان عبد الحميد انتقاداتٌ عنيفةٌ من قبل جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي بسبب جهاز الاستخبارات الَّذي شكَّله، وفي الحقيقة إنَّ ذلك الجهاز استطاع أن يحقِّق إيجابيَّاتٍ كبيرةً للدَّولة العثمانيَّة فعندما (... كان مثيرو الشَّغب، والإرهابيُّون يثيرون الأرمن للتَّمرُّد ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة كان الجنود يتصدَّون لهم، وتُراق دماءٌ كثيرةٌ... كان جهاز السُّلطان عبد الحميد ـ خلال ثلاثين سنة ـ يخبر السُّلطان فور ظهور كلِّ حركةٍ، ولذلك تمكَّن السُّلطان من إخماد كلِّ تمرُّدٍ داخليٍّ في حينه)[2].

---

(١) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ١٦٠.

(٢) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إسماعيل ياغي، ص ١٨٩.

ثالثاً: تمرُّداتٌ وثوراتٌ في البلقان:

قام سكَّان الجبل الأسود، والصِّرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج على الدَّولة العثمانيَّة، وكان ذلك في عام (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) واستطاع العثمانيُّون إخمادها، ورغب السُّلطان عبد الحميد في منع الدُّول الأوربيَّة من التَّدخُّل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السُّلطة التَّنفيذيَّة، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضَّرائب بين المسلمين والنَّصارى... ولم يرضِ ذلك السُّكَّان، فعادوا إلى الثَّورة ـ الَّتي قمعت أيضاً، ولكنَّ النِّمسا الَّتي كانت وراء الثَّورة، وترغب في ضمِّ البوسنة، والهرسك إليها ـ استمرَّت في تحريض السُّكَّان ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، فعملت النِّمسا مع روسيا، وألمانيا، وفرنسا، وإنجلترا على الطَّلب من السُّلطان بالقيام بإصلاحاتٍ، فوافق عليها السُّلطان، ولكنَّ نصارى البوسنة لم يتقبَّلوا بذلك. وهذا يدلُّ على المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبرِّراتٍ واهيةٍ، وحقيقة الأمر: أنَّهم يريدون التَّدخُّل في شؤون الدَّولة بشكلٍ مباشرٍ، وغير مباشرٍ لإضعافها، والإطاحة بها[1].

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الَّذي قام فيه نصارى البوسنة، والهرسك بثورتهم بدعمٍ من النِّمسا، والدُّول الأوربيَّة، وخاصَّةً روسيا، فقد تأسَّست جمعِيَّاتٌ في بلاد البلغار لنشر النُّفوذ الرُّوسي بين النَّصارى الأرثوذكس، والصَّقالبة، وكانت تدعمها روسيا، وتمدُّها بالسِّلاح، وتبذل هذه الجمعِيَّات بدورها جهدها لإثارة سكان الصِّرب، والبوسنة، والهرسك، وتحرِّضهم على

(١) المصدر السَّابق نفسه.

الثَّورة ضدَّ العثمانيِّين، وعندما أنزلت الدَّولة العثمانيَّة بعض الأسر الشَّركسيَّة؛ احتجَّ البلغار على ذلك، فقاموا بثورةٍ، وساعدتهم روسيا، والنِّمسا بالسِّلاح والأموال؛ فتمكنَّت الدَّولة العثمانيَّة من القضاء على الثَّورة، فأخذت الدُّول الأوربيَّة تثير الشَّائعات عن المجازر الَّتي ارتكبها العثمانيُّون ضدَّ النَّصارى، والعكس هو الصَّحيح. وبهذه الشَّائعات أثير الرَّأي العامُّ الأوربيُّ ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، وطالبت الحكومات الأوربيَّة باتِّخاذ إجراءاتٍ صارمةٍ ضدَّ العثمانيِّين ومنها حصول البلغار على استقلالٍ ذاتيٍّ، وتعيين حاكمٍ نصرانيٍّ لهم[١].

وقام الرُّوس، والألمان، والنِّمساويون بدفع الصِّرب، والجبل الأسود للقيام بحربٍ ضدَّ العثمانيِّين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنِّمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة، والهرسك، ووعدت هذه الدُّول أمير الصِّرب، والجبل الأسود بالدَّعم. وشرع جنود الرُّوس بالتَّدفُّق سرًّا على بلاد الصِّرب، والجبل الأسود، وتمكَّنت الدَّولة العثمانيَّة من الانتصار على الصِّرب، وحلفائهم، فتدخَّلت الدُّول الأوربيَّة، وطلبت وقف القتال، وإلا فالحرب الواسعةُ[٢].

واجتمع مندوبو الدُّول الأوربيَّة في إسطنبول، وقدَّموا اقتراحاتٍ للدَّولة من أهمِّها:

تقسيم بلاد البلغار إلى ولايتين، ويكون ولاتها من النَّصارى، وأن تشكَّل لجنة دوليَّةٌ لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة، والهرسك أيضـًا، وأن تتنازل الدَّولة عن بعض الأراضي للصِّرب، والجبل الأسود.

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٩٠.

ولكنَّ الدَّولة العثمانيَّة رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحًا منفرداً مع الصِّرب، سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصِّرب، ويرفع العلم العثماني والصِّربي دليلاً على السِّيادة العثمانيَّة[١].

لقد كان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني على يقينٍ من أنَّ هدف الدُّول الغربيَّة هو السَّعيُ لسقوط الدَّولة العثمانيَّة؛ حيث قال في مذكِّراته: (رأيت أثناء مؤتمر الدُّول الكبرى الَّذي عقد في إسطنبول ما عزمت عليه هذه الدُّول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرَّعايا المسيحيِّين، بل تأمين الاستقلال الذَّاتي لهؤلاء الرَّعايا، ثمَّ العمل على استقلالهم التَّامِّ، وبذلك يتمُّ تقسيم الدَّولة العثمانيَّة.

كانوا يعملون على تقسيم هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيِّين، وتعكير صفاء الجوِّ، وبهذا تتصدَّى هذه الدُّول لحمايتهم.

والثَّانية: القول بالمشروطيَّة، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلتا الغايتين، وبكلِّ أسفٍ كان على خبز العدوِّ شيئًا من السَّمن. فلم يستطع بعض الشَّباب العثماني المثقَّف أن يفرق بين التَّطبيق السَّهل، والحكم الدُّستوري في بلادٍ تتمتَّع بوحدةٍ قوميَّةٍ، وبين تعذُّر هذا الحكم في الدُّول الَّتي لا تتمتَّع بوحدةٍ قوميَّةٍ)[٢].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ١٤٥.

رابعاً: الحرب الرُّوسيَّة العثمانيَّة:

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدَّافئة بسبب عوامل دينيَّة، واقتصاديَّة، وجغرافيَّة. وقد نصَّ «بطرس الأكبر» (١٦٢٧ ـ ١٧٢٥م) في وصيَّته للرُّوس (في الفقرات التَّاسعة، والحادية عشرة، والثَّالثة عشرة) على ضرورة الصِّراع الحضاري ضدَّ العثمانيِّين، إلى أن تنتهي الدَّولة العثمانيَّة من الوجود.

يقول «بطرس الأكبر» في الفقرة التَّاسعة من وصيَّته:

(نقترب من القسطنطينيَّة، والهند بقدر الإمكان، فمن يملك القسطنطينيَّة؛ فقد ملك العالم. بناءً على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيِّين).

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النِّمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيِّين من أوربَّة).

وفي الفقرة الثَّانية عشرة يقول: (وبعد التَّسلُّط على الممالك العثمانيَّة، نجمع جيوشنا، وتدخل أساطيلنا بحر البلطيق، والبحر الأسود، ونشرع في التَّفاوض مع فرنسا ودولة النِّمسا في قسمة العالم بيننا)[1].

إنَّ روسيا اهتمَّت بتلك الوصيَّة، وفي عصر السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كثرت الثَّورات بدعمٍ من روسيا، والدُّول الأوربيَّة في البلقان، واليونان، وغيرها من الأقاليم العثمانيَّة، ولم تكتفِ بذلك، بل عملت على قيام دولٍ نصرانيَّةٍ مستقلَّةٍ مثل رومانيا، وبلغاريا، والصِّرب، واليونان. وبعد أن حقَّق العثمانيُّون

(١) انظر: التُّحفة الحليميَّة، إبراهيم حلمي بك، ص ٢٤١.

انتصاراتٍ رائعةً في البلقان؛ استعدَّت روسيا للحرب، ثمَّ أعلنتها حربـًا لا هوادة فيها ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، وانضمَّت رومانيا إِلى روسيا، ودخل العثمانيُّون في حربٍ طاحنةٍ مع الرُّوس، وعبرت الجيوش الرُّوسيَّة نهر الدَّانوب، واستولت على بعض المدن التَّابعة للعثمانيِّين ومنها «تيرنوه» و«نيقولبلي بل» الَّتي تقع في بلغاريا حاليّـًا، كما استولى الرُّوس على بعض النِّقاط المهمَّة، والمعابر المؤدِّية إِلى البلقان، وقام السُّلطان عبد الحميد بتغييرٍ كبيرٍ في قيادات الجيوش العثمانيَّة للتَّصدِّي للغزو الرُّوسي، وقد حاول الرُّوس الاستيلاء على مدينة «بلفنة» الَّتي تقع في بلغاريا حاليّـًا، وهي من أهمِّ المعابر إِلى البلقان، ولكنَّ القائد العثمانيَّ الشُّجاع الغازي (عثمان باشا) تصدَّى لهم بكلِّ شجاعةٍ، فردَّهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرَّة أخرى بقوَّاتٍ أكثر كثافةً، ومع ذلك نجح ذلك القائد العثمانيُّ الفذُّ في التَّصدِّي للرُّوس مرَّةً أخرى، ممَّا جعل السُّلطان العثماني يصدر مرسومـًا خاصّـًا في الثَّناء على ذلك القائد[١].

وأمام هذا الصمود حاول الرُّوس التَّغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة، واتَّبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإِمدادات من الوصول إِلى الجيوش العثمانيَّة فيها، وفي الوقت نفسه عزَّزوا قوَّاتهم، وحضر القيصر الرُّوسي بنفسه على المعركة القادمة، وانضمَّ أمير رومانيا إِلى روسيا، وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكريَّة في صالح الرُّوس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصاراً على ثلاثة خطوط على القوَّات العثمانيَّة، مع هذا؛ فإِنَّ العثمانيِّين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم

(١) انظر: الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور، ص ٤١٨.

أنَّ عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنَّهم لم يكتفوا بذلك الصُّمود، بل أعدُّوا خطَّةً رائعةً لهجومٍ معاكسٍ على خطوط العدوِّ المحاصر لهم طالبين بذلك إمَّا النَّصر، وفكُّ الحصار عنهم، أو الشَّهادة.

وقاد عثمان باشا قوَّاته الَّتي انحدرت على الأعداء، وهم يهلِّلون، ويكبِّرون، فسقطت أعدادٌ منهم شهداء على أيدي قوَّات الرُّوس، ومع ذلك فقد تمكَّنوا من اختراق الخطِّ الأوَّل للمحاصرين، والخطِّ الثَّاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخطِّ الثَّالث، فسرت إشاعةٌ قويَّةٌ بين جنده باستشهاده، ففتَّ ذلك في عضدهم، وحاولوا الرُّجوع إلى المدينة، ولكنَّ بعض قوَّات الرُّوس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيُّون في العراء بين نيران العدوِّ المختلفة، فاضطرُّوا إلى الاستسلام للقوَّات الرُّوسيَّة. وكان ذلك في عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلَّم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الرُّوس الَّذين كانوا معجبين به، ويشيدون بشجاعته، وإقدامه[١]، حتَّى إنَّ القائد العامَّ للقوَّات الرُّوسيَّة قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرَّائع، وأعاد له سيفه احترامًا لقدرته القتاليَّة، وصبره. وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧م، واستقبله القيصر بكلِّ مراسم الاحترام، ولم يعامل «عثمان باشا» معاملة الأسير[٢].

وقد شجَّعت تلك الانتصارات الرُّوسيَّة الصِّرب في البلقان على التَّحرُّك ضدَّ العثمانيِّين، وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانيَّة هناك، فأشغلتهم

(١) المصدر السَّابق، ص ٤١٩.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٤١.

عن الـرُّوس، الَّذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدةٍ. وبالفعل تمكَّن الرُّوس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حاليّـًا) ولم يكتفِ الرُّوس بهذا، بل توجَّهوا جنوبـًا ناحية العاصمة العثمانيَّة القديمة، ووصلوا إِلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلو متراً عن إسطنبول، وأصبح الموقف داخل الدَّولة العثمانيَّة سيِّئـًا إِلى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيِّين والرُّوس في الجانب الآسيوي حيث وصل الـرُّوس إِلى الأناضول، ومع ذلك تمكَّن العثمانيُّون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الرُّوسيَّة، وانتصر العثمانيُّون بقيادة أحمد مختار باشا على الرُّوس في أكثر من ستِّ معارك، ممَّا جعل السُّلطان عبد الحميد يصدر مرسومـًا في الثَّناء عليه، وقد عاود الرُّوس الهجوم في تلك المناطق مرَّةً أخرى، وتمكَّنوا سنة ١٢٩٥هـ من إِنزال الهزائم بالقوَّات العثمانيَّة، والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها[١].

وأمام تلك الهزائم العثمانيَّة في أوربَّة، وفي آسيا اضطرَّت الدَّولة العثمانيَّة للدُّخول في هدنةٍ مع الـرّوس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطَّرفين معاهدة سان ستفانو عام ١٨٧٨م.

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م. ووقَّعها «صفوت باشا» عن الدَّولة العثمانيَّة؛ وهو يبكي. وكان لا بدَّ بالضَّرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروطٍ مجحفةٍ بالدَّولة العثمانيَّة[٢].

---

(١) انظر: الفتوح الإِسلاميَّة عبر العصور، ص ٤١٨.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٤٤.

معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):

قدَّم المندوب الرُّوسي شروطًا مسبقةً، وطلب التَّوقيع عليها مباشرةً وإلا تتقدَّم الجيوش الرُّوسيَّة، وتحتلُّ إسطنبول، ولم يكن للعثمانيِّين من خيارٍ سوى التَّوقيع. وتنصُّ المعاهدة:

١ ـ تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النِّزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

٢ ـ تستقلُّ إمارة الصِّرب، وتُضاف إليها أراضٍ جديدةٍ.

٣ ـ تستقلُّ بلغاريا استقلالاً ذاتيًّا إداريًّا، وتدفع مبلغًا محدَّداً إلى الدَّولة العثمانيَّة، ويكون موظَّفو الدَّولة، والجند من النَّصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيِّين والرُّوس. وينتخب الأمير من قبل السُّكَّان، ويخلي العثمانيُّون جنودهم نهائيًّا من بلغاريا.

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التَّام.

٥ ـ يتعهَّد الباب العالي بحماية الأرمن، والنَّصارى من الأكراد، والشَّركس.

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النَّصارى في جزيرة كريت.

٧ ـ تدفع الدَّولة العثمانيَّة غرامة حربيَّة قدرها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبيَّة، ويمكن لروسيا أن تتسلَّم أراضي مقابل هذا المبلغ.

٨ ـ تبقى المضائق (البسفور، والدَّردنيل) مفتوحةً للسُّفن الرُّوسيَّة في السِّلم، والحرب.

٩ ـ يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدَّولة العثمانيَّة[١].

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدَّولة في أوربَّة، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدُّول البلقانيَّة الأخرى: النِّمسا، اليونان، والصِّرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النُّفوذ الرُّوسي في البلقان، واستعدَّت لمحاربة روسيا، وحصلت من الدَّولة العثمانيَّة على حقِّ احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى تابعةً للدَّولة العثمانيَّة، وذلك في مقابل تعهُّدها بالدِّفاع عن أملاك الدَّولة في آسيا في وجه أيِّ مزيدٍ من التَّهديدات الرُّوسيَّة، بشرط أن يتعهَّد السُّلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيويَّة بالتَّشاور مع بريطانيا، وقد تعهَّدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الرُّوس عن المناطق الَّتي احتلُّوها في آسيا[٢].

لم يكن السُّلطان عبد الحميد راضيًا في الأصل بدخول هذه الحرب، لذلك لم يصدِّق على المعاهدة، وقام بجهودٍ سياسيَّةٍ، ودبلوماسيَّةٍ مكثَّفةٍ، حتَّى أقنع بريطانيا في الوقوف بجانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النَّظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدَّولة، وقلَّلت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

---

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٢ ـ ١٩٣.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٩٣.

ودلَّت أحداث المعاهدتين على عبقريَّة السُّلطان عبد الحميد السِّياسيَّة، الَّتي تمثَّلت في إِحداث النُّفور بين دولة روسيا، ودولة ألمانيا أيضـًا[١].

يقول الإِمبراطور الألماني «غليوم الثَّاني» في مذكِّراته:

(جرى لي حديثٌ مع أحد كبار القوَّاد الَّذين أُلحقوا بخدمة البلاط القيصريِّ في عهد «ألكسندر الثَّاني» قيصر روسيا، عن العلاقات بين البلاطين الرَّوسي، والألماني، وبين الجيشين والبلدين، فقلت لهذا القائد: إِنِّي أرى انقلابـًا محسوسـًا في هذه العلاقات. فقال لي: الذَّنب في ذلك على مؤتمر برلين! تلك غلطةٌ كبرى ارتكبها «بسمارك» فقد قضى على الصَّداقة القديمة الَّتي كانت بيننا، وأزال الثِّقة بألمانيا من البلاط الرُّوسي، ومن الحكومة الرُّوسيَّة. وجعل الجيش يشعر بأنَّه جني عليه جنايةً عظمى بعد الحرب الدَّمويَّة الَّتي خاض غمارها عام ١٨٧٧م)[٢].

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ ـ ١٨٨٧م):

حضر ذلك المؤتمر الدُّول الكبرى (إِنجلترا، فرنسا، ألمانيا، والنِّمسا)، وجرى البحث في هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستفانو الَّتي عقدت بين روسيا والدَّولة العثمانيَّة، وذلك لمعارضة الدُّول المعنيَّة لهذه المعاهدة؛ لأنَّها لا تتَّفق مع مصالحها الإِستراتيجيَّة.. واتَّفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان ستفانو، وعقدت معاهدة برلين، والَّتي تناولت الشُّروط التَّالية:

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٤٥.

(٢) انظر: مذكِّرات غليوم الثَّاني، ص ١٨ ـ ١٩.

١ ـ استقلال بلغاريا، وتعديلٌ في حدودها، وتتشكَّل في جنوب البلقان ولايةٌ باسم الرُّوملِّلي الشَّرقي تكون تحت سيادة الدَّولة العثمانيَّة سياسيًّا وعسكريًّا، ويحكمها نصرانيٌّ، يعيَّن لمدَّة خمس سنواتٍ باتِّفاق الدُّول، وتبقى قوَّة لروسيا في بلغاريا، والرُّوملِّلي الشَّرقي، وتحدَّد بخمسين ألف جندي.

٢ ـ تقدَّمت حدود اليونان قليلاً إِلى الشَّمال، مع العلم بأنَّ اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان ستفانو أيَّ جزءٍ منها.

٣ ـ ضمُّ البوسنة والهرسك للنِّمسا.

٤ ـ ضمُّ بسارابيا إِلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا، وتُضمُّ مقاطعة دوبرجيه، وبعض الجزر إِلى رومانيا ومنحها الاستقلال التامَّ.

٥ ـ استقلال الصِّرب، والجبل الأسود.

٦ ـ ضمُّ مدن قارص، وأردهان، وباطوم لروسيا.

٧ ـ قرَّر المؤتمر الإِبقاء على الغرامة الحربيَّة الَّتي قرَّرتها معاهدة سان ستفانو على الدَّولة العثمانيَّة، ومقدارها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبيَّة.

٨ ـ تعهَّد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدِّين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم.

٩ ـ الموافقة على تحسين أوضاع النَّصارى في جزيرة كريت[١].

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الَّذي دعا إِلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدِّي تصدِّي بريطانيا لروسيا إِلى نشوب حرب أوربيَّةٍ عامَّةٍ، وتهديد الاتِّحاد

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إِسماعيل ياغي، ص ١٩٥.

الألماني الَّذي جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنَّه دعا الدُّول العظمى إلى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان ستفانو، وتسوية نتائج الحرب التُّركيَّة الرُّوسيَّة[١].

وقد ذكر بعض المؤرِّخين[٢]: أنَّ في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطوريَّة العثمانيَّة على مذبح السَّلام الأوربي، فعرض على بريطانيا مصر، وعلى فرنسا تونس، والشَّام، وعلى النِّمسا البوسنة، والهرسك، وعلى روسيا البوغازين (البسفور، والدَّردنيل) وغير ذلك من أملاك السُّلطان. غير أنَّ هذه العروض لم تدرج في مقرَّرات المؤتمر[٣].

وهكذا فإنَّ مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطوريَّة العثمانيَّة الَّتي أرغمت على التَّنازل عن مساحاتٍ واسعةٍ من أملاكها، كما أنَّه يسجِّل تعهُّد بريطانيا، وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدَّولة العثمانيَّة. غير أنَّ بريطانيا، وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعماريَّة، فقد احتلَّت فرنسا تونس عام (١٢٩٩هـ ـ ١٨٨١م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص، واحتلَّت بريطانيا مصر عام (١٣٠٠هـ ـ ١٨٨٢م) معلنةً أنَّ احتلالها مؤقَّتٌ[٤].

وهكذا كانت النَّتيجة من الحرب بين الدَّولة العثمانيَّة، وروسيا، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردِّيَة كان على السُّلطان أن يتَّخذ لقب الخلافة لمواجهة التَّحدِّيات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلاميَّة لكي يعمل على تكتُّل جميع المسلمين من حوله في الدَّاخل والخارج.

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) الدُّكتور إسماعيل ياغي، وأحمد مصطفى عبد الرَّحيم.

(٣) انظر: في أصول التَّاريخ العثماني، ص ١٩٥.

(٤) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٥.

ولا شكَّ أنَّ حركة الجامعة الإسلاميَّة قد لاقت استحسانـًا، وقبولاً لدى المسلمين الَّذين اعتقدوا أنَّ ضعف الدَّولة العثمانيَّة مرجعه ضعف الشُّعور الدِّيني عند المسلمين، الأمر الَّذي دفع فيه أعداء الإسلام للزَّحف على دار الإسلام، ونهبها بلداً تلو الآخر[١].

(١) المصدر السَّابق، ص ١٩٦.

المبحث الثَّاني

الجامعة الإسلاميَّة

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلاميَّة في معترك السِّياسة الدَّوليَّة إلا في عهد السُّلطان عبد الحميد، وبالضَّبط بعد ارتقاء السُّلطان عبد الحميد عرش الدَّولة العثمانيَّة عام ١٨٧٦م. فبعد أن التقط السُّلطان عبد الحميد أنفاسه، وجرَّد المتأثِّرين بالفكر الأوربيِّ من سلطاتهم، وتولَّى هو قيادة البلاد قيادةً حازمةً؛ اهتمَّ السُّلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلاميَّة، وقد تكلَّم في مذكِّراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوَّة الإسلاميَّة بين كلِّ مسلمي العالم في الصِّين، والهند، وأواسط أفريقية، وغيرها، وحتَّى إيران، وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمرٌ جديرٌ بالتَّأسُّف عليه، وإذا أردنا أن نفوِّت الفرصة على الإنجليز، وعلى الرُّوس؛ فإنَّنا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر)[1].

وتحدَّث عن علاقة الدَّولة العثمانيَّة بإنجلترا الَّتي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانيَّة، يقول عبد الحميد الثَّاني: (الإسلام والمسيحيَّة نظرتان مختلفتان، ولا يمكن الجمع بينهما في حضارةٍ واحدةٍ) لذلك يرى أنَّ (الإنجليز قد أفسدوا عقول المصريِّين؛ لأنَّ البعض أصبح يقدِّم القوميَّة على الدِّين. ويظنُّ أنَّه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوربيَّة، وإنجلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلاميَّة إلى هزِّ عرشي... وأنَّ الفكر القوميَّ قد تقدَّم تقدُّمًا ملموسًا في

(١) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ٢٣.

مصر. والمثقَّفون المصريُّون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبةً في يد الإِنجليز، إِنَّهم بذلك يهزُّون اقتدار الدَّولة الإِسلاميَّة، ويهزُّون معها اعتبار الخلافة)[١].

ويقول عن السِّياسة الإِنجليزيَّة تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الإِنكليزيَّة ما نصُّه: «يجب أن تصبح الجزيرة العربيَّة تحت الحماية الإِنجليزيَّة، ويجب على إِنكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدَّسة»... إِنَّ إِنجلترا تعمل لهدفين: إِضعاف تأثير الإِسلام، وتقوية نفوذها.. لذلك أراد الإِنجليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين، ولكن ليس هناك مسلمٌ صادقٌ واحدٌ يقبل أن يكون الخديوي أميراً للمؤمنين؛ لأنَّه بدأ دراسته في جنيف، وأكملها في فيينا، وتطبَّع بطابع الكفَّار)[٢].

وعندما ظهر اقتراح إِنكلترا (لإِعلان الشَّريف حسين أمير مكَّة خليفة للمسلمين)[٣] ويعترف السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بأنَّه لم يكن لديه الطَّاقة، ولا القوَّة لمحاربة الدُّول الأوربيَّة.. (ولكنَّ الدُّول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتَّفقون على إِنهاء الدَّولة العثمانيَّة)[٤]، و(أنَّ الدَّولة العثمانيَّة تضمُّ أجناساً متعدِّدةً من أتراكٍ، وعربٍ، وألبان، وبلغار، ويونانيِّين، وزنوج، وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإِسلام تجعلنا أفراد أسرةٍ واحدةٍ)[٥].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ٢٤.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

(٥) المصدر السَّابق نفسه.

ويُعبِّر عبد الحميد الثَّاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقيَّة المسلمين في كلِّ مكانٍ، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر، وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن بعد؛ لكنَّه سيأتي، سيأتي اليوم الَّذي يتَّحد فيه كلُّ المؤمنين، وينهضون فيه نهضةً واحدةً، ويقومون قومة رجلٍ واحدٍ، وفيه يحطِّمون رقبة الكفَّار)[١].

كانت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في نظر السُّلطان عبد الحميد يمكن بها أن تحقِّق أهدافًا، منها:

ـ مواجهة أعداء الإسلام المثقَّفين بالثَّقافة الغربيَّة، والَّذين توغَّلوا في المراكز الإداريَّة، والسِّياسيَّة الحسَّاسة في أجهزة الدُّول الإسلاميَّة عمومًا، وفي أجهزة الدَّولة العثمانيَّة خصوصًا، وإيقافهم عند حدِّهم، عندما يجدون أنَّ هناك سدّاً إسلاميّاً ضخمًا، وقويّاً يقف أمامهم.

ـ محاولة إيقاف الدُّول الاستعماريَّة الأوربيَّة، وروسيا، عند حدِّها عندما تجد: أنَّ المسلمين قد تكتَّلوا في صفٍّ واحدٍ، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعماريَّة، ووقفوا ضدَّها بالوحدة الإسلاميَّة.

ـ إثبات أنَّ المسلمين يمكن أن يكونوا قوَّةً سياسيَّةً عسكريَّة، يحسب لها حسابها في مواجهة الغزو الثَّقافي، والفكريِّ، والعقديِّ الرُّوسي، الأوربيِّ النَّصراني.

ـ تأخذ الوحدة الإسلاميَّة الجديدة دورها في التَّأثير على السِّياسة العالميَّة[٢].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) انظر: السَّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٦٨.

ـ تستعيد الدَّولة العثمانيَّة بوصفها دولة الخلافة قوَّتها، وبذلك يمكن إِعادة تقويتها، وتجهيزها بالأجهزة العلميَّة الحديثة في الميادين كافَّةً، وبذلك تستعيد هيبتها، وتكون درسًا تاريخيًّا. يقول: (إِنَّ العمل على تقوية الكيان السِّياسي، والاجتماعي الإِسلامي، أفضل من إِلقائه أرضًا، وتكوين كيانٍ غريبٍ فكريًّا، واجتماعيًّا على نفس الأرض)[١].

ـ إِحياء منصب الخلافة، ليكون أداةً قويَّةً، وليس صوريًّا كما حدث لفترة، وبذلك لا يكون السُّلطان وحده فقط هو الَّذي يقف في مواجهة أطماع الغرب، وعملائه في الدَّاخل، وإِنَّما هي وحدةٌ شعوريَّةٌ بين شعوب المسلمين جميعًا. يكون هو الرَّمز، والموجِّه، والموحِّد.

وإِلى هذا أشار المؤرِّخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله: (إِنَّ السُّلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإِسلاميَّة، تجميع مسلمي العالم تحت رايةٍ واحدةٍ، وهذا لا يعني إِلا هجمةً مضادَّةً، يقوم بها المسلمون ضدَّ هجمة العالم الغربيِّ الَّتي استهدفت عالم المسلمين)[٢].

ولذلك استخدم السُّلطان عبد الحميد كلَّ الإِمكانيَّات المتاحة في ذلك الوقت من اتِّخاذ الدُّعاة من مختلف جنسيَّات العالم الإِسلامي، من العلماء، والمبرِّزين في مجالات السِّياسة، والدُّعاة الَّذين يمكن أن يذهبوا إِلى أرجاء العالم الإِسلامي

(١) المصدر السَّابق، ص ١٦٩.
(٢) المصدر السَّابق نفسه.

المختلفة للالتقاء بالشُّعوب الإسلاميَّة، وفهم ما عندهم، وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السُّلطان الخليفة، ونشر العلوم الإسلاميَّة، ومراكز الدِّراسات الإسلاميَّة في الدَّاخل والخارج، وطبع الكتب الإسلاميَّة الأساسيَّة، ومحاولة اتِّخاذ اللُّغة العربيَّة لأوَّل مرَّة في تاريخ الدَّولة العثمانيَّة لغةً للدَّولة، أو ما يسمَّى بالتَّعبير المعاصر «تعريب» الدَّولة العثمانيَّة، والعناية بالمساجد، والجوامع من تجديدٍ، وترميمٍ، وبناءِ الجديد منها، والقيام بحملات تبرُّعٍ لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدَّولة العثمانيَّة، واستمالة زعماء القبائل العربيَّة، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة لتعليم أولاد رؤساء العشائر، والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة، والاستفادة من الصَّحافة الإسلاميَّة في الدِّعاية للجامعة الإسلاميَّة، واتِّخاذ بعض الصُّحف وسيلةً للدِّعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النَّهضة العلميَّة، والتِّقنيَّة في الدَّولة العثمانيَّة، وتحديث الدَّولة فيما هو ضروريٌّ[1].

ولقد التفَّت مجموعةٌ من العلماء، ودعاة الأمَّة الإسلاميَّة إلى دعوة الجامعة الإسلاميَّة من أمثال جمال الدِّين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر، وأبي الهدى الصَّيادي من سورية، وعبد الرَّشيد إبراهيم من سيبيريا، والحركة السَّنوسيَّة في ليبيا، وغيرها.

أوَّلاً: جمال الدِّين الأفغاني والسُّلطان عبد الحميد:

أيَّد جمال الدِّين الأفغاني دعوة السُّلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلاميَّة، وقدَّم مشروعاتٍ أكبر بكثير من طموح السُّلطان. ولم يكن السُّلطان يأمل في

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٧٢.

أكثر من وحدة هدفٍ بين الشُّعوب الإِسلاميَّة، ووحدة حركة بينها، وهي وحدةٌ شعوريَّةٌ عمليَّةٌ، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبةٍ، وقوَّةٍ، لكنَّ الأفغاني عرض على السُّلطان مشروعـًا، يرمي إِلى توحيد أهل السُّنَّة مع الشِّيعة، وكانت نظرة السُّلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصَّدد أكثر من توحيد الحركة السِّياسيَّة بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي[1].

واستفاد السُّلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغاني، في الدِّعاية إِلى الجامعة الإِسلاميَّة، رغم الاختلاف بين فكر السُّلطان وفكر الأفغاني، ومن أسباب الاختلاف:

١ ـ إِيمان الأفغاني بقضيَّة وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثُّوَّار ضدَّ السُّلطان عبد الحميد من القوميِّين الأتراك، والعثمانيِّين عامَّةً.

٢ ـ دعوة الأفغاني لوحدة الشُّعوب الإِسلاميَّة، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلبٍ واحدٍ في مواجهة الدُّول الأوربيَّة الزَّامية إِلى تقسيم الدَّولة العثمانيَّة العاملة على انهيارها، وفي نفس الوقت، لم يتعرَّض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد. في وقت احتاج فيه السُّلطان عبد الحميد إِلى مقاومة الفرنسيِّين في شمال أفريقية[2].

٣ ـ تنديد جمال الدِّين بالاستعمار الإِنكليزي، في حين يذكر السُّلطان عبد الحميد: أنَّ المخابرات العثمانيَّة، حصلت على خطَّةٍ أعدَّت في وزارة الخارجيَّة

(١) المصدر السَّابق، ص ١٨١.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٨٢.

الإنكليزيَّة، واشترك فيها جمال الدِّين الأفغاني، وبلنت الإنكليزيِّ، وتقضي هذه الخطَّة بإقصاء الخلافة عن السُّلطان عبد الحميد، وعن العثمانيِّين عموماً. وبلنت هذا سياسيٌّ إنكليزيٌّ يعمل في وزارة الخارجيَّة الإنكليزيَّة، ومؤلِّف كتاب «مستقبل الإسلام» ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيِّين، وتقليدها للعرب. وقد ردَّ مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنيَّة في مصر على «بلنت» في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشَّرقيَّة) قائلاً: (وبالجملة، فإنَّ حضرة مؤلِّف كتاب مستقبل الإسلام يرى ـ وما هو إلا مترجم عن آمال بني جنسه ـ أنَّ الأليَق بالإسلام أن ينصِّب إنكلترا دولة له، بل إنَّ الخليفة يجب أن يكون إنكليزيّاً)[1].

٤ ـ رغم الأطماع الرُّوسيَّة، والحروب الرُّوسيَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة واقتطاع الرُّوس لأجزاءٍ من الأراضي العثمانيَّة، فقد كان موقف السَّيِّد جمال الدِّين الأفغاني من مبدأ التَّوسُّع الرُّوسي غريباً على مفهوم الجامعة الإسلاميَّة؛ لأنَّه يعترف بما للرُّوس من مصالح حيويَّة، واستراتيجيَّة في الهند، تدفعهم لاحتلالها، وأنَّه ليس لدى الأفغاني اعتراضٌ على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الرُّوس باتِّباع أسلم السُّبل، وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة، وتشركهما في المنفعة.

٥ ـ الخلاف العقدي الَّذي ظهر بين العلماء في إسطنبول وبين جمال الدِّين الأفغاني، وظهور كتاب الشَّيخ (خليل فوزي الفيليباوي) المُعَنْوَن:

(١) المصدر السَّابق، ص ١٨٣.

(السُّيوف القواطع) للرَّدِّ على عقيدة الأفغاني، وسكوت الأفغاني عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه. والكتاب باللُّغة العربيَّة، ومترجمٌ وقتها إِلى اللُّغة التُّركيَّة.

مالَ السُّلطان عبد الحميد إِلى تركيز كلِّ السُّلطات في يده بعد أن ذاق الأمرَّيْن من وزرائه، وضبَّاط جيشه، وصدوره العظام المتأثِّرين بالفكر الغربيِّ، والَّذين هدفوا إِلى إِقامة ديمقراطيَّة أوربيَّة، تضمُّ مجلساً منتخباً يمثِّل كلَّ شعوب الدَّولة العثمانيَّة، ومعارضة السُّلطان عبد الحميد لهذا بحجَّة: أنَّ عدد النُّوَّاب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلِّي للبرلمان. في حين أنَّ جمال الدِّين الأفغاني يميل إِلى الدِّيمقراطيَّة، وعدم تركيز السُّلطات في يد شخصٍ واحدٍ بعينه، ويميل الأفغاني إِلى الحرِّيَّة في التَّعبير عن الرَّأي[1].

ولقد ذكر السُّلطان عبد الحميد في مذكِّراته بأنَّ جمال الدِّين الأفغاني مهرِّجٌ، وله علاقةٌ بالمخابرات الإِنكليزيَّة: (وقعتْ في يدي خطَّةٌ أعدَّها في وزارة الخارجيَّة الإِنكليزيَّة مهرِّجٌ اسمه: جمال الدِّين الأفغاني، وإِنكليزيٌّ يُدعى: بلنت قالا فيها بإِقصاء الخلافة عن الأتراك. واقترحا على الإِنكليز إِعلان الشَّريف حسين أمير مكَّة خليفةً على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدِّين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطيراً، اقترح عليَّ ذات مرَّةٍ ـ وهو يدَّعي المهديَّة ـ أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى، وكنت أعرف أنَّه غير قادرٍ على هذا، وكان رجل الإِنكليز، ومن المحتمل جدّاً أن يكون الإِنكليز قد أعدُّوا هذا الرَّجل لاختباري، فرفضت فوراً، فاتَّحد مع بلنت.

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٨٤.

استدعيته إلى إسطنبول عن طريق أبي الهدى الصَّيادي الحلبي، الَّذي كان يلقى الاحترام في كلِّ البلاد العربيَّة.

قام بالتَّوسُّط في هذا كلٌّ من: منيف باشا، حامي الأفغان القديم، والأديب الشَّاعر عبد الحق حامد، وجاء جمال الدِّين الأفغاني إلى إسطنبول، ولم أسمح له مرَّةً أخرى بالخروج منها...)[١].

أمَّا رأي جمال الدِّين الأفغاني في السُّلطان عبد الحميد؛ فإنَّه يقول: (إنَّ السُّلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر؛ لرجحهم ذكاءً، ودهاءً، وسياسةً، خصوصًا في تسخير جليسه، ولا عجب إذا رأيناه يذلِّل لك ما يقام لملكه من الصِّعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضيًا عنه، وعن سيرته، وسيره، مقتنعًا بحجَّته سواءٌ في ذلك: الملك، والأمير، والوزير، والسَّفير...)[٢].

وقال: (ورأيته يعلم دقائق الأمور السِّياسيَّة، ومرامي الدُّول الغربيَّة، وهو معدٌّ لكلِّ هوَّةٍ تطرأ على الملك مخرجًا، وسلمًا، وأعظم ما أدهشني ما أعدَّه من خفيِّ الوسائل، وأمضى العوامل، كي لا تتَّفق أوربَّة على عملٍ خطيرٍ في الممالك العثمانيَّة، ويريها عيانًا محسوسًا أن تجزئة السَّلطنة العثمانيَّة لا يمكن إلا بخرابٍ يعمُّ الممالك الأوربيَّة بأسرها)[٣].

---

(١) انظر: مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ١٤٨.

(٢) انظر: جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، ص ١٣٧.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

ويقول: (أمَّا ما رأيته من يقظة السُّلطان، ورشده، وحذره، وإِعداده العدَّة اللازمة لإِبطال مكائد أوربَّة، وحسن نواياه، واستعداده للنُّهوض بالدَّولة الَّذي فيه نهضة المسلمين عمومـاً، فقد دفعني إِلى مدِّ يدي له، فبايعته بالخلافة والملك، عالمـاً علم اليقين: أنَّ الممالك الإِسلاميَّة في الشَّرق لا تسلم من شراك أوربَّة، ولا من السَّعي وراء إِضعافها، وتجزئتها، وفي الأخير ازدراؤها واحدةً بعد أخرى إلا بيقظةٍ، وانتباهٍ عموميٍّ، وانضواءٍ تحت راية الخليفة الأعظم...)[1].

إِنَّ جمال الدِّين الأفغاني أمره محيِّر، فهناك من يدافع عنه، وهناك من يتَّهمه بالعمالة، والانضمام إِلى المحافل الماسونيَّة، فمثلاً: كتاب «دعوة جمال الدِّين الأفغاني في ميزان الإِسلام» للمؤلِّف مصطفى فوزي عبد اللَّطيف غزال يرى: أنَّه كان من عوامل الهدم في الأمَّة في تاريخها الحديث. أمَّا كتاب «جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه» للدُّكتور محسن عبد الحميد، فيراه من المصلحين.

ثانياً: الطُّرق الصُّوفيَّة:

استهدف السُّلطان عبد الحميد الطُّرق الصُّوفيَّة في كسب ولائها للدَّولة العثمانيَّة، والدَّعوة إِلى فكرة الجامعة الإِسلاميَّة، واستطاع أن يُكوِّن رابطةً بين مقرِّ الخلافة ـ إِسطنبول ـ وبين تكايا، ومراكز تجمُّع الطُّرق الصُّوفيَّة في كلِّ أنحاء العالم الإِسلاميِّ، واتَّخذ من حركة التَّصوُّف في العالم الإِسلاميِّ وسيلةً للدِّعاية للجامعة الإِسلاميَّة، كما اتَّخذ من الزُّهَّاد من غير المتصوِّفة وسيلةً أيضـاً للدَّعوة

(١) المصدر السَّابق نفسه.

لفكر التَّجمُّع الإسلامي، وتكوَّنت في عاصمة الخلافة لجنةٌ مركزيَّةٌ، مكوَّنةٌ من العلماء، وشيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة، حيث عملوا مستشارين للسُّلطان في شؤون الجامعة الإسلاميَّة: الشَّيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشَّريفة في الحجاز، والشَّيخ (أبو الهدى الصَّيادي) شيخ الطَّريقة الرِّفاعيَّة، والشَّيخ (محمَّد ظافر الطَّرابلسي) شيخ الطَّريقة المدنيَّة، وأحد علماء الحرم المكِّي، كانوا أبرز أعضاء هذه اللَّجنة المركزيَّة للجامعة الإسلاميَّة، وكان معهم غيرهم.

وكانت الدَّولة العثمانيَّة تنتشر فيها هيئاتٌ فرعيَّةٌ في جميع الأقاليم خاضعةٌ لهذه اللّجنة، ومن أهمِّها الَّتي كانت في مكَّة تحت إشراف شريف مكَّة، ومهمَّتها نشر مفهوم الجامعة الإسلاميَّة في موسم الحجِّ بين الحجَّاج، وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمَّة بين أتباع الطَّريقة القادريَّة، الَّذين يأتون بكثرة من الشَّمال الأفريقي لزيارة الشَّيخ عبد القادر الكيلاني مؤسِّس الطَّريقة، وقد قدِّرت أعداد هؤلاء في إحدى السَّنوات بحوالي (٢٥٠٠٠٠) نسمة، وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقية، ووصفت المخابرات الفرنسيَّة ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشَّمال الأفريقي من بغداد من أعمالٍ ضدَّ الفرنسيِّين، وضدَّ الاستعمار الفرنسي بأنَّها:

(استفزازات بعض رجال الدِّين التَّابعين للطَّريقة القادريَّة)[1].

وَلِلَّجنة المركزيَّة للجامعة الإسلاميَّة في إسطنبول فرعٌ أفريقيٌّ يعمل في شمال أفريقية، وهو يعمل في سرِّيَّةٍ تامَّةٍ، مهمَّته تنسيق العمل بين الجماعات

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٩٦.

الدِّينيَّة هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: (الشَّاذليَّة، والقادريَّة، والمدنيَّة)[١].

وبلغ من نفوذ هذه الحركة، وهيبتها أن وصفتها إِدارة المخابرات الفرنسيَّة في شمال أفريقية بقولها: (ويمكن للسُّلطان عبد الحميد ـ بصفته رئيساً للجامعة الإِسلاميَّة ـ أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدِّينيَّة في شمال أفريقية جيشاً محلِّيّاً منظَّماً، يتمكَّن ـ إِذا لزم الأمر ـ أن يقاوم به أيَّ قوَّةٍ أجنبيَّةٍ)[٢].

ولم تستطع المخابرات الفرنسيَّة أن تكشف وسائل التَّنظيم للطُّرق الصُّوفيَّة التَّابعة للخلافة الإِسلاميَّة في شمال أفريقية، وكلُّ ما استطاعت عملَه، هو محاولتها إِضعاف هيبة السُّلطان عبد الحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقية، ومحاولة هذه السُّلطات ضرب سياسة الجامعة الإِسلاميَّة. وذلك باتِّباع سياسةٍ فرنسيَّةٍ تقوم على:

١ ـ إِغراء بعض شيوخ الطُّرق الصُّوفيَّة بالمال، وبالمركز للوقوف مع فرنسا، وسياستها في شمال أفريقية.

٢ ـ منع الحجيج من الحجِّ، حتَّى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإِسلاميَّة بالسُّبل المناسبة. بمعنى: عدم إِعلان منع الحجِّ، واتِّخاذ أسبابٍ صحيَّةٍ لتخويف النَّاس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[٣]. وأرسل السُّلطان عبد الحميد مجموعةً من الزُّهَّاد، والمتصوِّفة إِلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات

(١) المصدر السَّابق، ص ١٩٧.
(٢) المصدر السَّابق نفسه.
(٣) المصدر السَّابق، ص ١٩٨.

الإنكليزيَّة الدَّاعية إلى سلب الخلافة من العثمانيِّين، لإعطائها إلى العرب، واتَّصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكَّام الجزيرة العربيَّة، لا سيَّما الحجاز[١].

وهناك اتِّصالاتٌ بين السُّلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلاميَّة، وخليفة المسلمين، وسلطان الدَّولة العثمانيَّة، وبين تجمُّعات الطُّرق الصُّوفيَّة، وشيوخها في تركستان، وفي جنوب أفريقية، وفي الصِّين. بعضها كُشِفَ عنها النِّقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكلٍ كافٍ بعد[٢].

لقد نجح السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في جمع الطُّرق الصُّوفيَّة إلاَّ أنَّه فضَّل السُّكوت عن كثيرٍ من انحرافاتها العقديَّة، بحيث إنَّ الطُّرق الصُّوفيَّة في تلك المرحلة انحرفت عن كتاب الله، وسنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا ما رحم الله، ولذلك أضعفت الأمَّة، وساهمت في سقوط الخلافة الإسلاميَّة العثمانيَّة السُّنِّيَّة، وسنبيِّن ذلك بإذن الله تعالى في أسباب السُّقوط.

ثالثاً: تعريب الدَّولة:

كان السُّلطان عبد الحميد يرى ـ منذ أن تولَّى الحكم ـ ضرورة اتِّخاذ اللُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً للدَّولة العثمانيَّة. وفي هذا يقول: (اللُّغة العربيَّة لغةٌ جميلةٌ. ليتنا كنَّا اتَّخذناها لغةً رسميَّة للدَّولة من قبل! لقد اقترحت على «خير الدِّين باشا ـ التُّونسي ـ» عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللُّغة العربيَّة هي اللُّغة الرَّسميَّة، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا، وقال: «إذا عرَّبنا الدَّولة فلن يبقى ـ للعنصر التُّركي ـ شيءٌ بعد ذلك».

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

كان « سعيد باشا» رجلاً فارغـًا، وكان كلامه فارغـًا. ما دَخْلُ هذه المسألة بالعنصر التُّركي؟! المسألة غير هذا تمامـًا. هذه مسألة، وتلك مسألةٌ أخرى اتِّخاذنا للُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً للدَّولة من شأنه ـ على الأقلِّ ـ أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[١].

إِنَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كان يشكو ـ وخصوصـًا في بداية حكمه ـ من أنَّ الوزراء، وأمناء القصر السُّلطانيِّ كانوا يختلفون عنه في التَّفكير، وأنَّهم متأثِّرون بالغرب، وبالأفكار القوميَّة، والغربيَّة، وكانوا يشكِّلون ضغطـًا على القصر، سواءٌ في عهد والده السُّلطان عبد المجيد، وفي عهد عمِّه السُّلطان عبد العزيز، أو في عهده هو. لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السُّلطان عبد الحميد بتعريب الدَّولة العثمانيَّة على الوزراء المتأثِّرين بالغرب فقط، بل تعدَّاه إِلى معارضةٍ من بعض علماء الدِّين[٢].

إِنَّ من الأخطاء الَّتي وقعت فيها الدَّولة العثمانيَّة عدم تعريب الدَّولة، وشعبها بلغة القرآن الكريم، والشَّرع الحكيم.

يقول الأستاذ محمَّد قطب: (ولو تصوَّرنا: أنَّ دولة الخلافة قد استعربت، وتكلَّمت اللُّغة العربيَّة الَّتي نزل بها هذا الدِّين؛ فلا شكَّ: أنَّ عوامل الوحدة داخل الدَّولة كانت تصبح أقوى، وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عمَّا يتيحه تعلُّم العربيَّة من المعرفة الصَّحيحة بحقائق هذا الدِّين من مصادره المباشرة:

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٩٩.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٠٠.

كتاب الله، وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ممَّا كان الحكَّام، والعامَّة كلاهما في حاجةٍ إليه، على الرَّغم من كلِّ ما تُرجم إلى التُّركيَّة، وما أُلِّف أصلاً بالتُّركيَّة حول هذا الدِّين)[1].

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة:

عندما تولَّى السُّلطان عبد الحميد السَّلطنة رأى: أنَّ المدارس، ونظام التَّعليم أصبح متأثِّراً بالفكر الغربيِّ، وأنَّ التَّيَّار القوميَّ هو التَّيَّار السَّائد في هذه المدارس، فتدخَّل في شؤونها ووجَّهها ـ من خلال نظرته السِّياسيَّة ـ إلى الدِّراسات الإسلاميَّة، فأمر بالآتي:

- استبعاد مادَّة الأدب والتَّاريخ العام من البرامج الدِّراسيَّة؛ لكونها وسيلةً من وسائل الأدب الغربيِّ، والتَّاريخ القوميِّ للشُّعوب الأخرى، ممَّا يؤثِّر على أجيال المسلمين سلباً.
- وضع دروس الفقه، والتَّفسير، والأخلاق في برامج الدِّراسة.
- الاقتصار فقط على تدريس التَّاريخ الإسلامي بما فيه العثماني.

وجعل السُّلطان عبد الحميد مدارس الدَّولة تحت رقابته الشَّخصيَّة، ووجَّهها لخدمة الجامعة الإسلاميَّة[2].

واهتمَّ بالمرأة، وجعل للفتيات داراً للمعلِّمات، ومنع اختلاطهنَّ بالرِّجال، وفي هذا يذكر السُّلطان في معرض الدِّفاع عن نفسه أمام اتِّهام جمعيَّة الاتِّحاد

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٣.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٠١.

والتَّرقِّي له بأنَّه عدوُّ العقل، والعلم بأنَّه: (لو كنت عدوّاً للعقل، والعلم؛ فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدوّاً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا ـ اللَّواتي لا يختلطن بالرِّجال ـ داراً للمعلِّمات؟!)[1].

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدَّولة العثمانيَّة، وهاجم تسرُّب أخلاق الغرب، إِلى بعض النِّساء العثمانيَّات، ففي صحف إسطنبول في ٣ أكتوبر ١٨٨٣م، ظهر بيانٌ حكوميٌّ موجَّه إِلى الشَّعب يعكس وجهة نظر السُّلطان شخصيّاً في رداء المرأة.

يقول هذا البيان: (إِنَّ بعض النِّساء العثمانيَّات اللائي يخرجن إِلى الشَّوارع في الأوقات الأخيرة يرتدين ملابس مخالفةً للشَّرع. وإِنَّ السُّلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتِّخاذ التَّدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة، كما أبلغ السُّلطان الحكومة أيضاً بضرورة عودة النِّساء إِلى ارتداء الحجاب الشَّرعيِّ الكامل بالنِّقاب؛ إِذا خرجن إِلى الشَّوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء، واتَّخذ القرارات التَّالية:

• (تعطى مهلة شهرٍ واحدٍ يمنع بعده سير النِّساء في الشَّوارع إِلا إِذا ارتدين الحجاب الإِسلاميَّ القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كلِّ زينةٍ، ومن كلِّ تطريزٍ.

• يُلغَى ارتداء النِّساء النِّقاب المصنوع من القماش الخفيف، أو الشَّفَّاف. وبالتَّالي ضرورة العودة إِلى النِّقاب الشَّرعي الَّذي لا يبيِّن خطوط الوجه.

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٩٩.

• على الشُّرطة ـ بعد مضيِّ شهرٍ على نشر هذا البيان ـ ضمان تطبيق ما جاء فيه من قراراتٍ بشكلٍ حاسمٍ، وعلى قوَّات الضَّبطيَّة التَّعاون مع الشُّرطة في هذا.

• صدَّق السُّلطان على هذا البيان بقراراته الحكوميَّة.

• ينشر هذا البيان في الصُّحف، ويعلَّق في الشَّوارع)[١].

وفي اليوم التَّالي لنشر هذا البيان؛ أي: في ٤ أكتوبر قالت جريدة «وَقِتْ» الصَّادرة في إسطنبول: (إنَّ المجتمع العثمانيَّ عمومًا يصوِّب هذا القرار، ويراه نافعًا)[٢].

وكان السُّلطان عبد الحميد يرى: (أنَّ المرأة لا تتساوى مع الرَّجل من حيث القوامة) ويقول: (ما دام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهيةٌ، ولا داعي للتَّحدُّث عن مساواة المرأة بالرَّجل).

ويرى: (إنَّ فكرة هذه المساواة إنَّما جاءت من الغرب)[٣].

كما كان يدافع عن تعدُّد الزَّوجات في وقتٍ كان الإعلام العثماني يثير هذه القضيَّة معترضًا عليها. ويقول السُّلطان: (لماذا يعترض بعض المثقَّفين على هذا الأمر، ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدَّولة العثمانيَّة، في بعض أماكن أوربَّة، وأمريكا؟) ويؤكِّد السُّلطان: (إنَّ مبدأ تعدُّد الزَّوجات مباحٌ في الإسلام، فماذا يعني الاعتراض عليه؟)[٤].

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٠٠.

(٢) انظر: موسوعة أتاتورك (١/ ٥٩ ـ ٦٠).

(٣) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٠٠.

(٤) المصدر السَّابق، ص ١٠١.

لقد كان السُّلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة، ولذلك أنشأ داراً للمعلِّمات؛ لتخريج معلِّماتٍ للبنات، كما كان ضدَّ الاختلاط بين الرَّجل والمرأة، وضدَّ سفور المرأة، ولم يكن في عهده للمرأة رأيٌ في شؤون الدَّولة مهما كانت هذه الشُّؤون، وإِنَّما دور المرأة في البيت، وتربية الأجيال، وكان يعامل المرأة معاملةً كريمةً نادرةً، فهذه زوجة أبيه الَّتي احتضنته، وقامت بتربيته عندما تولَّى السُّلطان العرش، أعلن زوجة أبيه الَّتي ربَّته والدة السُّلطان، بمعنى الملكة في المفهوم الحديث، وكانت الملكة في القصر العثماني، هي أمُّ السُّلطان، وليست زوجته، كما في الدُّول الأخرى. ومع كلِّ هذا، ففي اليوم التَّالي لتنصيب السُّلطان عبد الحميد على عرش الدَّولة العثمانيَّة، قابل زوجة أبيه، وهي الَّتي أحبَّها حبّاً بالغاً، وقبَّل يدها، وقال لها:

(بحنانك لم أشعر بفقد أمِّي، وأنت في نظري أمِّي لا تفترقين عنها، ولقد جعلتك السُّلطانة الوالدة. يعني: أنَّ الكلمة في هذا القصر لك. لكنِّي أرجوك ـ وأنا مصرٌّ على هذا الرَّجاء ـ ألا تتدخَّلي بأيِّ شكلٍ من الأشكال في أيِّ عملٍ من أعمال الدَّولة، كَبُرَ أم صَغُرَ!)[1].

خامساً: مدرسة العشائر:

أنشأ السُّلطان عبد الحميد في إسطنبول ـ باعتبارها مقر الخلافة، ومركز السَّلطنة ـ مدرسة العشائر العربيَّة؛ من أجل تعليم، وإِعداد أولاد العشائر العربيَّة، من ولايات حلب، وسورية، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب، واليمن، والحجاز، وبنغازي، والقدس، ودير الزُّور.

(١) المصدر السَّابق، ص ٩٨.

وكانت مدَّة الدِّراسة في مدرسة العشائر العربيَّة في إسطنبول خمس سنوات، وهي داخليَّة، تتكفَّل الدَّولة العثمانيَّة بكلِّ مصاريف الطُّلاب، ولكلِّ طالبٍ «إجازة صلة الرَّحم» وهي إجازةٌ مرَّةً كل سنتين. وسفر الطَّالب فيها على نفقة الدَّولة.

وبرنامج مدرسة العشائر العربيَّة، في إسطنبول كان كالآتي:

السَّنة الأولى: القرآن الكريم ـ الأبجديَّة ـ العلوم الدِّينيَّة ـ القراءة التُّركيَّة ـ إملاء ـ تدريبٌ عسكريٌّ.

السَّنة الثَّانية: القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الإملاء ـ الحساب ـ القراءة التُّركيَّة ـ تحسين الخطِّ ـ تدريبٌ عسكريٌّ.

السَّنة الثَّالثة: القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الإملاء ـ حسن الخطِّ ـ الحساب ـ الجغرافيا ـ الفرنسيَّة ـ التَّدريب.

السَّنة الرَّابعة: القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ الصَّرف العربي ـ اللُّغة الفارسيَّة ـ الكتابة، والنَّحو التُّركي ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ حسن الخطِّ الفرنساوي ـ التَّدريب.

السَّنة الخامسة: القرآن الكريم ـ التَّجويد ـ العلوم الدِّينيَّة ـ النَّحو العربيُّ ـ اللُّغة الفارسيَّة ـ التَّاريخ العثماني ـ القواعد العثمانيَّة ـ الكتابة والقراءة التُّركيَّة ـ المكالمة التُّركيَّة ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ الهندسة ـ حسن الخطِّ ـ المعلومات المتنوِّعة ـ حفظ الصحَّة ـ أصول إمساك الدَّفاتر ـ اللُّغة الفرنسيَّة ـ حسن الخطِّ الفرنساوي ـ الرَّسم ـ التَّدريب[1].

---

(١) انظر: تاريخ التَّربية التُّركيَّة، عثمان أركين، ص ٦١٤ ـ ٦١٥، ٨٤، ١١٨٠، ١١٨٢، على التَّوالي.

وكان المتخرِّجون من هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكريَّة العالية. ويحصلون بعد ذلك على رتبٍ عاليةٍ. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة الملكيَّة ـ وهي مدنيَّةٌ ـ يدرسون فيها سنة، ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثمَّ يعودون إِلى بلادهم[١].

كما أنشأ السُّلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعَّاظ والمرشدين) الَّذي أقيم لإِعداد الدُّعاة للدَّعوة الإِسلاميَّة، وللجامعة الإِسلاميَّة، ثمَّ يتخرَّجون، فينطلقون إِلى مختلف أرجاء العالم الإِسلامي يدعون للإِسلام، ويدعون للخلافة، ويدعون للجامعة الإِسلاميَّة[٢].

ولقد كانت نظرة السُّلطان عبد الحميد بعيدةً وثاقبةً، ولذلك اهتمَّ بمسلمي الصِّين.

خرجت الصَّحافة في إسطنبول بخبر مفاده: أنَّ عدداً من مسلمي الصِّين متحمِّسون، يحبُّون العلم، ويرغبون بالاستفادة من المعارف الإِسلاميَّة، وأنَّ لديهم مؤسَّساتٍ تعليميَّة، ومدارس، وأنَّ في بكِّين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً، وجامعاً، يؤدِّي المسلمون فيها الصَّلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وأنَّ خطبة الجمعة في مساجد، وجوامع بكِّين تُقرأ باللُّغة العربيَّة، ثمَّ تترجم إِلى اللُّغة الصِّينيَّة، وأنَّ الدُّعاء للسُّلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكِّين فقط، بل ويمتدُّ إِلى كلِّ مساجد الصِّين، وجوامعها[٣].

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٠٢.

(٢) انظر: الانقلاب العثماني، مصطفى طوران، ص ٣٧.

(٣) انظر: جريدة ترجمان حقيقت، رسالة من الصِّين ٢٦/ ١٢/ ١٣٢٥هـ.

تأسَّست في بكِّين ـ عاصمة الصِّين ـ جامعةٌ أطلق عليها المسلمون الصِّينيُّون اسم (دار العلوم الحميديَّة) نسبة إِلى السُّلطان الخليفة عبد الحميد الثَّاني، أو بتعبير السَّفير الفرنسي في إسطنبول اسم: (الجامعة الحميديَّة في بكِّين) وذلك في تقريرٍ له إِلى وزارة خارجيَّته في باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلافُ من المسلمين الصِّينيِّين. وحضره أيضاً مفتي المسلمين في بكِّين، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفي مراسم الافتتاح، ألقيت الخطبة باللُّغة العربيَّة، ودعا الخطيب للسُّلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتي بكِّين بترجمة الخطبة، والدُّعاء إِلى اللُّغة الصِّينيَّة. وبكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حارّاً بدافع فرحتهم، وإِنَّ مسلمي الصِّين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدِّين المتين. وإِنَّ إِيراد الخطبة باللُّغة العربيَّة لغة المسلمين الدِّينيَّة، ورفع علم الدَّولة العثمانيَّة على باب هذه الجامعة، قد أثَّر تأثيراً بالغاً في هؤلاء النَّاس الطَّيبي القلب، وحرَّك الدُّموع في أعينهم[1].

سادساً: خطُّ سكَّة حديد الحجاز:

عمل السُّلطان عبد الحميد على كسب الشُّعوب الإِسلاميَّة عن طريق الاهتمام بكلِّ مؤسَّساتها الدِّينيَّة والعلميَّة، والتَّبرُّع لها بالأموال، والمنح، ورصد المبالغ الطَّائلة لإِصلاح الحرمين، وترميم المساجد، وزخرفتها، وأخذ السُّلطان يستميل إِليه مسلمي العرب بكلِّ الوسائل، فكوَّن له من العرب حرساً خاصّاً، وعيَّن بعض الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزَّت باشا العابد) ـ من أهل

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٠٥.

الشَّام ـ الَّذي نجح في أن ينال أكبر حظوةٍ عند السُّلطان عبد الحميد، وأصبح مستشاره في الشُّؤون العربيَّة، وقد لعب دوراً هامّاً في مشروع سكَّة حديد الحجاز الممتدَّة من دمشق إِلى المدينة المنوَّرة، وهو بهذا المشروع الَّذي اعتبره السُّلطان عبد الحميد وسيلةً من الوسائل الَّتي أدَّت لإِعلاء شأن الخلافة، ونشر فكرة الجامعة الإِسلاميَّة.

وأبدى السُّلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإِنشاء الخطوط الحديديَّة في مختلف أنحاء الدَّولة العثمانيَّة مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراضٍ، وهي:

١ ـ ربط أجزاء الدَّولة المتباعدة، ممَّا ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانيَّة، والجامعة الإِسلاميَّة، والسَّيطرة الكاملة على الولايات الَّتي تتطلَّب تقوية قبضة الدَّولة عليها.

٢ ـ إِجبار تلك الولايات على الاندماج في الدَّولة، والخضوع للقوانين العسكريَّة؛ الَّتي تنصُّ على وجوب الاشتراك في الدِّفاع عن الخلافة بتقديم المال، والرِّجال.

٣ ـ تسهيل مهمَّة الدِّفاع عن الدَّولة في أيَّة جبهةٍ من الجبهات الَّتي تتعرَّض للعدوان؛ لأنَّ مدَّ الخطوط الحديديَّة ساعد على سرعة توزيع القوَّات العثمانيَّة، وإِيصالها إِلى الجبهات[1].

وكانت سكك حديد الحجاز من أهمِّ الخطوط الحديديَّة الَّتي أنشئت في عهد السُّلطان عبد الحميد، ففي سنة ١٩٠٠م بدأ بتشييد خطٍّ حديديٍّ من دمشق

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، د. موفَّق بني المرجَة، ص ١١٣.

إِلى المدينة للاستعاضة به عن طريق القوافل الَّذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يومـًا، وطريق البحر الَّذي يستغرق حوالي اثني عشر يومـًا من ساحل الشَّام إِلى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة، أو خمسة أَيَّامٍ على الأكثر، ولم يكن الغرض من إِنشاء هذا الخطِّ مجرَّد خدمة حجَّاج بيت الله الحرام، وتسهيل وصولهم إِلى مكَّة، والمدينة، وإِنَّما كان السُّلطان عبد الحميد يرمي من ورائه أيضـًا إِلى أهدافٍ سياسيَّةٍ، وعسكريَّةٍ، فمن النَّاحية السِّياسيَّة خلق المشروع في أنحاء العالم الإِسلامي حماسةً دينيَّةً كبيرةً؛ إِذ نشر السُّلطان على المسلمين في جميع أنحاء الأرض بيانـًا يناشدهم فيه المساهمة بالتَّبرُّع لإِنشاء هذا الخطِّ[1]، وقد افتتح السُّلطان عبد الحميد قائمة التَّبرُّعات بمبلغ (خمسين ألفـًا ذهبـًا عثمانيّـًا من جيبه الخاصِّ) وتقرَّر دفع (مئة ألفٍ) ذهبـًا عثمانيّـًا من صندوق المنافع، وأُسِّست الجمعيَّات الخيريَّة، وتسابق المسلمون من كلِّ جهةٍ للإِعانة على إِنشائها بالأنفس، والأموال[2].

وتبرَّع للمشروع الشَّخصيَّات الهامَّة في الدَّولة، مثل الصَّدر الأعظم ووزير الحربيَّة (حسين باشا) ووزير التِّجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروعات (عزَّت باشا).

وتبارى موظَّفو الشَّركات في التَّبرُّع، مثل موظَّفي شركة البواخر العثمانيَّة. وكذلك موظَّفو الدَّولة العموميُّون والولايات، مثل ولاية بيروت، ودمشق، وحلب، وبورصة، وغيرها.

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١١٣.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٢٢.

وشارك القصر الحاكم في مصر في حملة التَّبرُّعات، وشُكِّلت في مصر لجنة الدِّعاية للمشروع، وجمع التَّبرُّعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصَّحافة المصريَّة في حملة سكَّة حديد الحجاز بحماسٍ، ومثال على ذلك جريدة المؤيَّد. وجمعت جريدة (اللِّواء) المصريَّة تبرُّعاتٍ للمشروع بلغت ـ حتَّى عام ١٩٠٤م ـ ثلاثة آلاف ليرة عثمانيَّة. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢٠٠٠) ليرة عثمانيَّة للمشروع حتَّى عام ١٩٠١م.

وأسهم في هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرَّائد المصري) وشُكِّلت لجان تبرُّع للمشروع في كلٍّ من القاهرة، والإِسكندريَّة، وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماسًا، وعاطفةً، وتبرُّعًا للمشروع. وقد تبرَّع أمير حيدر أباد بالهند بإنشاء محطَّة المدينة المنوَّرة في المشروع، كما تبرَّع شاه إِيران بمبلغ (٥٠٠٠٠) ليرة عثمانيَّة.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنِّيِّين الأجانب في إِقامة الجسور والأنفاق، فإِنَّهم لم يُستخدموا إِلا إِذا اشتدَّت الحاجةُ إِليهم، مع العلم بأنَّ الأجانب لم يشتركوا إِطلاقًا في المشروع، ابتداءً من محطَّة الأخضر ـ على بعد ٧٦٠ كيلو متراً جنوب دمشق ـ وحتَّى نهاية المشروع. ذلك لأنَّ لجنة المشروع استغنت عنهم، واستبدلتهم بفنِّيِّين مصريِّين.

وبلغ عدد العمَّال غير المهرة عام ١٩٠٧م (٧٥٠٠) عامل. وبلغ إِجمالي تكاليف المشروع (٤٢٨٣٠٠٠) ليرة عثمانيَّة. وتمَّ إِنشاء المشروع في زمنٍ وتكاليف أقلَّ ممَّا لو تعمله الشَّركات الأجنبيَّة في أراضي الدَّولة العثمانيَّة[١].

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٢٤.

وفي أغسطس سنة ١٩٠٨م وصل الخطُّ الحديديُّ إلى المدينة المنوَّرة، وكان مفروضًا أن يتمَّ مدُّه بعد ذلك إلى مكَّة، لكن حدث أن توقَّف العمل فيه لأنَّ شريف مكَّة ـ وهو الحسين بن علي ـ خشي على سلطانه في الحجاز من بطش الدَّولة العثمانيَّة فنهض لعرقلةِ مدِّ المشروع إلى مكَّة، وكانت مقرَّ إمارته، وقوَّته. فبقيت نهاية الخطِّ عند المدينة المنوَّرة، حتَّى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الإنكليز بالتَّحالف مع القوَّات العربيَّة الَّتي انضمَّت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن عليٍّ على تخريب سكَّة حديد الحجاز، ولا تزال هذه السِّكَّة معطَّلةً حتَّى اليوم، والمأمول أن تبذل الجهود لإصلاحها حتَّى تعود إلى العمل في تيسير سفر حجَّاج بيت الله الحرام.

وقد وصف السَّفير البريطانيُّ في القسطنطينيَّة في تقريره السَّنوي[١] العام ١٩٠٧م أهمِّيَّة الخطِّ الحجازي، فقال: (إنَّ بين حوادث السَّنوات العشر الأخيرة عناصر بارزةً في الموقف السِّياسيِّ العامِّ، أهمُّها خطَّة السَّلطان الماهرة الَّتي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمئة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الَّذي هو الرَّئيس الرُّوحي للمسلمين، وأن يقيم لهم البرهان على قوَّة شعوره الدِّينيِّ، وغيرته الدِّينيَّة ببناء سكَّة حديد الحجاز؛ الَّتي ستمهِّد الطَّريق في القريب العاجل أمام كلِّ مسلمٍ للقيام بفريضة الحجِّ إلى الأماكن المقدَّسة في مكَّة، والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الإنكليز على ذلك الخطِّ الحديديِّ، وافتعالهم الأزمات لإعاقته، وانتهازهم أوَّل فرصةٍ لتعطيله، ونسفه؛ لقطع الطَّريق على القوَّات العثمانيَّة[٢].

---

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ١١٤.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

وكان أوَّل قطار قد وصل إِلى محطَّة سكَّة الحديد في المدينة المنوَّرة من دمشق الشَّام يوم ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنِّسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافَّةً، فقد اختصر القطار في رحلته الَّتي استغرقت ثلاثة أيَّام، وقطع فيها ٨١٤ ميلاً مشقَّات رحلةٍ كانت تستغرق في السَّابق أكثر من خمسة أسابيع، كما خفقت في ذلك اليوم التَّاريخي قلوب أولئك الَّذين كانوا مشتاقين إِلى القيام بأداء فريضة الحجِّ المقدَّسة[١].

كانت سياسة عبد الحميد الإِسلاميَّة محصَّنةً، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعـًا، فكان مدُّ خطِّ السِّكَّة الحديدي بين الشَّام والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود[٢].

كان كرومر المعتمد البريطانيُّ في مصر (١٣٠١ - ١٣٢٥هـ ـ ١٨٨٣ - ١٩٠٧ م) من أوائل من ألَّب أوربَّة على الجامعة الإِسلاميَّة، وحرص على أن يتحدَّث في تقاريره السَّنويَّة عن الجامعة الإِسلاميَّة ببغضٍ شديدٍ، وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهـرام (المصريَّة) تصريحاتٍ مثيرةً لوزير فرنسيٍّ هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإِسلاميَّة. وكانت مهاجمة الجامعة الإِسلاميَّة تُستتبع بالتَّالي بمهاجمة الدَّولة العثمانيَّة؛ حتَّى تتفرَّق الوحدة الَّتي تجمع من حولها الـدُّول الإِسلاميَّة لتواجه النُّفوذ الاستعماريَّ الزَّاحف الَّذي قد رسم مخطَّطه على أساس التهام هذه الوحدات، والحيلولة دون التقائها مرَّةً أخرى

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ١١٤.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

في أيِّ نوعٍ من الوحدة؛ ليستديم سيطرته عليها[١]؛ فاتَّخذوا لذلك عدَّة أعمالٍ أساسيَّةٍ:

١ ـ تعميق الدَّعوات الإقليميَّة، والخاصَّة بالوطنيَّة، والأرض، والأمَّة، والعرق.

٢ ـ خلق جوٍّ فكريٍّ عامٍّ لمحاربة الوحدة الإسلاميَّة، وتصفيتها.

وكلُّ هذا مقدِّمةٌ لإلغاء الخلافة العثمانيَّة نهائيًّا، وبالتَّعاون مع الصَّهيونيَّة العالميَّة[٢]، ويهود الدُّونمة، وأذنابهم من جمعيَّات تركيَّا الفتاة، والاتِّحاد والتَّرقِّي.

سياسة التَّودُّد والاستمالة:

انتهج السُّلطان عبد الحميد الثَّاني سياسة التَّودُّد إلى الشَّخصيَّات ذات النُّفوذ في الأوساط الشَّعبيَّة في مختلف البقاع، فهو من ناحيةٍ كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويُعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتَّب رواتب أعضائه، وكان حسن النِّيَّة مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوي رتبٍ عاليةٍ عنده، وكان يتودَّد إلى الشَّخصيَّات المهمَّة والَّتي تشجِّع، وتقف مع فكرة الجامعة الإسلاميَّة، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين ـ إذا كانوا يحسنون النِّيَّة معه، ما داموا مقتنعين، ومساندين لفكرة الجامعة الإسلاميَّة ـ مثل (نامق كمال).

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي. د. جميل المصري (١/ ١٠١).

(٢) المصدر السابق نفسه.

وكان يختار بعض طلاب مدرسة العشائر العربيَّة من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النُّفوذ، والسَّطوة، والسُّمعة الطَّيِّبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسَّعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد، والألبان، وحرص على الاتِّصال بزعماء، وشيوخ، وأمراء قبائل العرب بواسطة الرَّسائل، والرُّسل لتقوية روابط الودِّ، والمحبَّة، والأخوَّة الإسلاميَّة، وكان على معرفة تامَّةٍ بعمل الإنجليز الَّذين اتَّصلوا بالشُّيوخ مثل (شريف مكَّة) و(الشَّيخ حميد الدِّين) في اليمن، وشيخ عسير، وبعض الشُّيوخ من أجل تحريضهم على الدَّولة العثمانيَّة، وتشجيعهم بالخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدَّولة العثمانيَّة.

وعمل على إبطال مخطَّطات الإنكليز، ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوانَ عن حجز من يشكُّ في ولائهم للدَّولة العثمانيَّة ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدَّولة في إسطنبول تحت مسمَّيات المناصب والمرتبات، حتَّى تأمن الدَّولة مؤامراتهم، كما فعل مع شريف مكَّة عندما عيَّنه عضواً في مجلس شورى الدَّولة في إسطنبول، ليمنعه من العودة إلى مكَّة. وقد عبَّر السُّلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف حسين أثناء حديثه مع الصَّدر الأعظم فريد باشا. قال السُّلطان عبد الحميد: (إنَّ الشَّريف حسين لا يحبُّنا، إنَّه الآن هادئٌ، وساكنٌ، لكنَّ الله وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشَّريف غداً). لذلك تأخَّر قيام الثَّورة العربيَّة بقيادة الشَّريف حسين إلى ما بعد خلع الاتِّحاديِّين للسُّلطان عبد الحميد.

فلمَّا حكم حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي الماسوني؛ أعاد الشَّريف حسين إلى مكَّة، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنكليز، ويحدث فجوةً كبيرةً بين مسلمي العرب والأتراك[1].

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٢٧.

سابعاً: إبطاله مخطَّطات الأعداء:

شرعت بريطانيا منذ الرُّبع الأوَّل من القرن التَّاسع عشر في تحريض الأكراد ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، بهدف إيجاد عداءٍ عثمانيٍّ كرديٍّ من ناحيةٍ، وانفصال الأكراد بدولةٍ تُقتطع من الدَّولة العثمانيَّة من ناحيةٍ أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانيَّة؛ زاد اهتمام الإنجليز بالعراق، وقامت على العمل لإيجاد حركةٍ قوميَّةٍ بين الأمـراء، وتجوَّل مندوبون بريطانيُّون بين عشائر الأكراد في العراق في محاولةٍ لتوحيد العشائر الكرديَّة ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، وكانت المخابرات العثمانيَّة تتابع الأمـور بدقَّةٍ متناهيةٍ، ووضع السُّلطان عبد الحميد خطَّةً مضادَّةً للعمل التَّدميريِّ الإنجليزيِّ، فقام بالتَّالي:

• قامت الدَّولة العثمانيَّة بحماية المواطنين الأكـراد من هجمات الأرمن الدَّمويَّة ضدَّهم.

• أرسل إلى عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنُّصح، والإرشاد، والدَّعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلاميَّة، وأدَّت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربيَّة.

• اتَّخذ السُّلطان عبد الحميد إجراءاتٍ يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به، وبالدَّولة.

• أسَّس الوحدات العسكريَّة الحميديَّة في شرق الأناضول من الأكـراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنيَّة.

• كان موقف الدَّولة قويّـًا ضدَّ أطماع الأرمـن في إِقامة دولـةٍ تُقتطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان[١].

• عملت الدَّولة على كشف مخطَّطات الإِنجليز الهادفة إِلى تفتيت الدَّولة العثمانيَّة تحت مسمَّى حرِّيَّة القوميَّات في تأسيس كلِّ قوميَّةٍ دولةً مختصَّةً بها.

استطاع السُّلطان عبد الحميد أن يضيِّق على النُّفوذ البريطانيِّ في اليمن، ويحقِّق نجاحـًا ظاهراً في صراعه مع الإِنجليز في تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقةً عسكريَّةً في اليمن قوامها ثمانية آلاف جنديٍّ، لإِعادة اليمن إِلى الدَّولة العثمانيَّة مَرَّةً أخرى، ووصل اهتمامه باليمن إِلى إِرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و (أحمد فوزي باشا) و(حسين حلمي باشا) و(توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا) و(إِسماعيل حقِّي باشا) وقد حاول الإِنجليز إِذكاء نيران التَّمرُّد في اليمن ضدَّ الدَّولة العثمانيَّة، ولكنَّ السِّياسة الحكيمة الَّتي سار عليها السُّلطان عبد الحميد كفلت له النَّجاح في اليمن[٢].

وكانت العقليَّة العثمانيَّة تسعى لمدِّ خطِّ سكَّة الحديد من الحجاز إِلى اليمن، وهذا ما أثبتته الوثائق الَّتي دلَّت على وجود تخطيطٍ، ودراسةٍ عميقةٍ لهذا المشروع الكبير[٣].

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٣١ ـ ١٣٢.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٢٤.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٢٢١.

ثامناً: الأطماع الإيطاليَّة في ليبيا:

كانت إِيطاليا تحلم بضمِّ شمال إفريقية؛ لأنَّها تراه ميراثًا إِيطاليًّا. هكذا صرَّح رئيس وزرائها (ماتزيني)[١]. لكنَّ فرنسا احتلَّت تونس، وإِنجلترا احتلَّت مصر، ولم يبقَ أمام إِيطاليا إِلا ليبيا.

رسمت إِيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:

الأولى: الحلول السِّلميَّة، بإِنشاء المدارس، والبنوك، وغيرها من «مؤسَّساتٍ خدميَّةٍ».

الثَّانية: العمل على أن تعترف الدُّول بآمال إِيطاليا في احتلال ليبيا بالطُّرق الدِّبلوماسيَّة.

الثَّالثة: إِعلان الحرب على الدَّولة العثمانيَّة والاحتلال الفعليِّ.

وكانت السِّياسة الإِيطاليَّة لا تلفت النَّظر إِلى تحرُّكاتها، بعكس السِّياسة البريطانيَّة، أو الفرنسيَّة في ذلك الوقت، وكان الإِيطاليُّون يتحرَّكون «بحكمةٍ» و «هدوءٍ» شديدين دون إِثارة حساسيَّة العثمانيِّين.

وكان السُّلطان عبد الحميد متيقِّظًا لتلك الأطماع الإِيطاليَّة، وطلب معلوماتٍ من مصادر مختلفةٍ عن نشاط الإِيطاليِّين في «ليبيا» وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إِنَّ للإِيطاليِّين بمدارسهم، وبنوكهم، ومؤسَّساتهم الخيريَّة الَّتي يقيمونها في الولايات العثمانيَّة، سواءٌ في ليبيا، أو في ألبانيا هدفًا أخيراً هو تحقيق أطماع إِيطاليا في الاستيلاء على كلٍّ من:

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٣٨.

١ ـ طرابلس الغرب.

٢ ـ ألبانيا.

٣ ـ مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسِّط: إزمير ـ الإسكندرون ـ أنطاكيا).

قام السُّلطان عبد الحميد الثَّاني باتِّخاذ التَّدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطاليَّة، ولمَّا شعر أنَّه سيواجه اعتداءً إيطاليًّا مسلَّحًا على ليبيا، قام بإمداد القوَّات العثمانيَّة في ليبيا بـ(١٥٠٠٠) جنديٍّ لتقويتها، وظلَّ يقظًا حسَّاسًا تجاه التَّحرُّكات الإيطاليَّة، ويتابعها شخصيًّا، وبدقَّةٍ، ويطالع كلَّ ما يتعلَّق بالشُّؤون اللِّيبيَّة بنفسه بواسطة سفير الدَّولة العثمانيَّة في روما، ووالي طرابلس؛ ممَّا جعل الإيطاليِّين يضطرُّون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتمَّ لهم ذلك في عهد جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي[1]، وسنأتي على ذلك بالتَّفصيل بإذن الله في الكتاب السَّابع الَّذي يتحدَّث عن الحركة السَّنوسيَّة، وأثرها الدَّعوي، والجهادي في إفريقية.

إنَّ فكرة الجامعة الإسلاميَّة كان لها صدىً بعيدٌ في العالم الإسلاميِّ لعدَّة أسبابٍ، منها:

١ ـ كانت الدُّول الأوربيَّة في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر تنافس على الاستعمار في الشَّرق، وحدثت سلسلة اعتداءات على الشُّعوب الإسلاميَّة، فاحتلَّت فرنسا تونس (١٨٨١م) واحتلَّت إنجلترا مصر (١٨٨٢م)، وتدخَّلت فرنسا في شؤون مرَّاكش؛ حتَّى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (١٩١٢م)

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ١٣٩.

مقتسمةً أراضيها مع إسبانيا، وكذلك توغَّل الاستعمار الأوربيُّ في بلادٍ أفريقيَّةٍ إسلاميَّةٍ كالسُّودان، ونيجيريا، وزنجبار، وغيرها.

٢ ـ تقدَّمت وسائل النَّقل، والاتِّصالات بين العالم الإسلامي، وانتشرت الحركة الصَّحافيَّة في مصر، وتركيَّا، والجزائر، والهند، وفارس، وأواسط آسيا، وجاوة (أندونيسيا)، وكانت الصُّحف تعالج موضوع الاستعمار، وأطماع الدُّول الأوربيَّة في العالم الإسلاميِّ، وتنشر أخبار الأوربيِّين المتكرِّرة في الهجوم على ديار الإسلام، فتتأثَّر القلوب، وتهيج النُّفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

٣ ـ كانت جهود العلماء، ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الإسلام، فقد انتشرت في ربوع العالم الإسلاميِّ الدَّعوة إلى وحدة الصَّفِّ، وازداد الشُّعور بأنَّ العدوان الغربيَّ بغير انقطاعٍ على الشَّعوب الإسلاميَّة ممَّا يزيدها ارتباطًا، وتماسكًا، وبأنَّ الوقت قد حان لتلتحم الشُّعوب الإسلاميَّة، وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانيَّة، وغير ذلك من الأسباب[١].

إنَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمِّيَّة التَّمسُّك، والسَّعي لتوحيد صفوف الأمَّة تحت راية الخلافة العثمانيَّة، وبذلك يستطيع أن يحقِّق هدفين:

الأوَّل: تثبيت دولة الخلافة في الدَّاخل ضدَّ الحملات القوميَّة التَّغريبيَّة، الماسونيَّة، اليهوديَّة، الاستعماريَّة، النَّصرانيَّة.

---

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ١١٢.

الثَّاني: وفي الخارج تلتفُّ حول راية الخلافة جموعُ المسلمين الخاضعين للدُّول الأوربيَّة، كروسيا، وبريطانيا، وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الـدُّول، ويهدِّدها بإِثارة المسلمين، وإِعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الإِسلاميِّ[1].

(١) المصدر السَّابق، ص ١١٣.

المبحث الثَّالث

السُّلطان عبد الحميد واليهود

إِنَّ حقيقة الصِّراع بين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني واليهود من أهمِّ الأحداث في تاريخ السُّلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثَّاني.

إِنَّ أمر اليهود، وعداءهم للإِسلام تعود جذوره إِلى ظهور الإِسلام منذ أن انتصر الإِسلام، وأجلاهم رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن المدينة المنوَّرة لخيانتهم المتكرِّرة، وعداواتهم الدَّائمة، ومن ثمَّ عن سائر الجزيرة العربيَّة في عهد الخليفة الرَّاشد عمر ابن الخطَّاب، وهم يكيدون له[1]، وقد تظاهر بعضهم بالإِسلام، وبثَّ السُّموم في جسم الأمَّة الإِسلاميَّة عبر تاريخها الطَّويل، وما عبد الله بن سبأ، والقرامطة، والحشَّاشون، والرَّاونديَّة، والدَّعوات الهدَّامة الَّتي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسُّلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاةً يهوديَّةً روسيَّةً، كانوا قد سبوها في إِحدى غزواتهم فتزوَّجها السُّلطان سليمان القانوني، وأنجبت له بنتًا، فما أن كبرت تلك البنت حتَّى سعت أمُّها اليهوديَّة لتزويجها من اللَّقيط الكرواتي رستم باشا، ثمَّ إِمعانًا منها في الغدر تمكَّنت من قتل الصَّدر الأعظم إِبراهيم باشا، ونصَّبت صهرها اللَّقيط بدلاً منه،

---

(١) ظهرت عداوة اليهود للمسلمين منذ أن انتصر المسلمون في غزوة بدر على كفَّار قريش، فكان ما كان منهم من مساعدةٍ لقريش، وتحدٍّ للمسلمين، وتحزيبهم الأحزاب على رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فكانت غزوة الأحزاب، وغيرها. (انظر سيرة ابن هشام ٣/ ١٦٩).

ثمَّ قامت بتدبير مؤامرةٍ أخرى، استطاعت بها أن تتخلَّص من ولي العهد مصطفى بن السُّلطان سليمان من زوجته الأولى، ونصَّبت ابنها سليمـًا الثَّاني وليّـًا للعهد.

في ذلك الزَّمن كان اليهود قد تعرَّضوا للاضطهاد في الأندلس، وروسيا، وتشرَّد الكثير منهم هربـًا من محاكم التَّفتيش، فتقدَّمت تلك اليهوديَّة من السُّلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد، وبالفعل فقد استقرَّ قسمٌ منهم في إزمير[١] ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصة، والمناطق الشَّماليَّة، والغربيَّة من الأناضول، وبعد استقرارهم في الدَّولة العثمانيَّة، طبَّقت الحكومة عليهم أحكام الشَّريعة الإسلاميَّة؛ حيث تمتَّعوا في ظلِّها بقدرٍ كبيرٍ من الاستقلال الذَّاتي، وفي الواقع: أنَّ يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط من تركيَّا العثمانيَّة، بل وجدوا الرَّفاهيَّة، والحرِّيَّة التَّامَّة بحيث أصبح لهم التَّسلسل الهرمي في الدَّولة؛ إذ تغلغلوا في المراكز الحسَّاسة منها، مثل دون جوزيف ناسي، وغيره، وتمتَّع يهود إسبانيا بشيءٍ كبيرٍ من الاستقلال، وأصبح رئيس الحاخامين مخوَّلاً له السُّلطة في الشُّؤون الدِّينيَّة، والحقوق المدنيَّة، بحيث إنَّ مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة إلى درجةٍ تحوَّلت إلى قانون يخصُّ اليهود[٢].

وتجدر الإشارة ـ في هذا المجال ـ إلى أنَّ علي باشا وزير الخارجيَّة ـ أصبح فيما بعد الصَّدر الأعظم ـ قد شارك في بعثته الدُّبلوماسيَّة عددٌ من اليهود في عام ١٨٦٥م المرسلة إلى الأقطار الأوربيَّة المسيحيَّة[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، دكتور علي حسون، ص ٢٤١.

(٢) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، د. أحمد النُّعيمي، ص ٣٧.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

إِنَّ اليهود تمتَّعوا بكلِّ الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدَّولة[١]. ووجدوا السِّلم، والأمان، وحرِّيَّة الوجود الكامل في الدَّولة العثمانيَّة[٢].

أوَّلاً: يهود الدُّونمة:

هناك مفاهيمٌ عديدةٌ لكلمة الدُّونمة؛ إِذ أنَّ الكلمة من النَّاحية اللُّغويَّة مشتقَّةٌ من الكلمة التُّركيَّة (دونمك) الَّتي تعني: الرُّجوع، أو العودة، أو الارتداد. أمَّا المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإِنَّه يعني: المرتد، أو المتذبذب، بينما تعني هذه الكلمة من النَّاحية الدِّينيَّة مذهبًا دينيًّا جديداً، دعا إِليه الحاخام شبتاي زيفي، أمَّا المفهوم السِّياسي لهذه الكلمة فإِنَّه يعني اليهود المسلمين الَّذين لهم كيانهم الخاصُّ[٣]، وقد أطلق المعنى الخاصَّ بالدُّونمة منذ القرن السَّابع عشر على اليهود الَّذين يعيشون في المدن الإِسلاميَّة، وخاصَّةً في ولاية سلانيك، وأطلق العثمانيُّون اسم الدُّونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهوديَّة إِلى الإِسلام، ثمَّ أصبح عَلَمًا على فئةٍ من يهود الأندلس الَّذين لجؤوا إِلى الدَّولة العثمانيَّة، وتظاهروا باعتناق العقيدة الإِسلاميَّة[٤].

إِنَّ مؤسِّس فرقة الدُّونمة هو «شبتاي زيفي» الَّذي ادَّعى أنَّه المسيح المنتظر في القرن السَّابع عشر، حيث انتشرت في تلك الأيَّام شائعةٌ تقول: إِنَّ المسيح

(١) المصدر السَّابق، ص ٣٨.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٣٩.
(٣) انظر: يهود الدُّونمة، د. أحمد النُّعيمي، ص ٨.
(٤) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ٢٤٢.

سيظهر في عام ١٦٤٨م كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنَّه سوف يحكم العالم في فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدَّولة اليهوديَّة المزعومة[١]، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعةً عندئذٍ في المجتمع اليهودي، وكانت الأوساط اليهوديَّة القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين، ومصر، وشرق أوربَّة، بل أيَّدها كثير من اليهود، وأصحاب الأموال لأغراضٍ سياسيَّةٍ، وماليَّةٍ[٢].

وذاع أمر شبتاي في أوربَّة، وبولندا، وألمانيا، وهولَّندا، وإنجلترا، وإيطاليا، وشمال أفريقية، وغيرها.

وفي إزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهوديَّة الَّتي جاءت من أدرنة، وصوفيا، واليونان، وألمانيا، حيث قلَّدته هذه الوفود تاج «ملك الملوك» ثمَّ قام شبتاي بتقسيم العالم إلى ثمانيةٍ وثلاثين جزءاً، وعيَّن لكلٍّ منها ملكـًا، اعتقاداً منه بأنَّه سيحكم العالم كلَّه من فلسطين، حيث كان يقول في هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داوود حاكم البشر، وأعتبر القدس قصراً لي)[٣].

وقام شبتاي بشطب اسم السُّلطان محمَّد الرَّابع من الخطب الَّتي كانت تلقى في كنيس اليهود، وجعل اسمه محلَّ اسم السُّلطان، وسمَّى نفسه (سلطان السَّلاطين) (سليمان بن داوود) ممَّا لفت انتباه الحكومة العثمانيَّة[٤].

---

(١) انظر: يهود الدُّونمة، ص ١٦.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢١.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٢٧.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

وأصبح شبتاي مصدر قلقٍ لكثيرٍ من حاخامي اليهود، ورفعوا ضدَّه شكوى إلى السُّلطان، أكَّدوا فيها أنَّ شبتاي ينوي القيام بحركةٍ تمرُّديَّةٍ في سبيل تأسيس دولةٍ يهوديَّةٍ في فلسطين[١].

ونتيجة لاشتداد فتنة شبتاي زيفي أصدر الوزير القويُّ أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه في السِّجن، وظلَّ فيه لمدَّة شهرين، ثمَّ نُقل إلى قلعة جزيرة غاليبولي على الدَّردنيل، وسمح لزوجته، وكاتبه الخاصِّ أن يتَّخذا لهما سكنًا معه، وأصبح له مجلسٌ كمجلس الأمراء، لا يدخل عليه إلا بإذنٍ مسبقٍ، وينتظر الَّذين يريدون أن يتمتَّعوا برؤيته أيَّامًا من أجل ذلك، وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها، والقادمات، حيث كانت وفودٌ يهوديَّةٌ من أنحاء العالم تقدم لزيارته[٢].

حوكم شبتاي في سراي أدرنة، حيث شكَّل السُّلطان هيئةً علميَّةً إداريَّةً برئاسة نائب الصَّدر الأعظم، وعضويَّة كلٍّ من (شيخ الإسلام) يحيى أفندي منقري زادة، وواحدٍ من كبار العلماء، وهو إمام القصر محمَّد أفندي وانلي، وقام بدور المترجم من الإسبانيَّة إلى التُّركيَّة الطَّبيب مصطفى حياتي[٣].

أكَّد قاضي المحكمة: أنَّ المسألة تعدُّ بالنِّسبة للدَّولة العثمانيَّة، وعلى مسمعٍ من السُّلطان الَّذي جلس في غرفةٍ مجاورةٍ (بواسطة التُّرجمان) قيل لشبتاي: تدَّعي: أنَّك المسيح، فأرنا معجزتك، سنجرِّدك من ثيابك، ونجعلك هدفًا

(١) المصدر السَّابق، ص ٣٤.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٣٦.
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

لسهام المهرة من رجالنا، فإن لم تغرز السِّهام في جسمك؛ فسيقبل السُّلطان ادِّعاءك! فهم شبتاي ما قيل له، فأنكر ما أسند إليه، وقال: إنَّهم تقوَّلوا عليه)[١]، فعُرِض عليه الإسلام، فدخل فيه تحت اسم محمَّد عزيز أفندي[٢]، وطلب من السُّلطات العثمانيَّة أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فأذنت له، وانتهزها فرصةً، فانطلق بين اليهود يواصل دعوته إلى الإيمان به، ويحثُّهم على ضرورة تجمُّعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام مبطنين يهوديَّتهم المنحرفة[٣].

وظلَّ شبتاي، وأنصاره يتَّبعون دينهم الموسوي سرّاً، ويمارسون العمل للصَّهيونيَّة في الخفاء، ويظهرون الإخلاص للإسلام في العلن، والصَّلاح، والتَّقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه: إنَّه كالنَّبيِّ موسى الَّذي اضطرَّ أن يبقى مدَّةً من الزَّمن في قصور الفراعنة[٤]. وفي ظلِّ هذه الظُّروف ألقي القبض على شبتاي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب أنَّه كان مرتديـاً زيّـًا يهوديّـًا، وهو محاطٌ بالنِّساء يشربون الخمر، وينشدون الأناشيد اليهوديَّة، وقراءة المزامير مع عددٍ من اليهود، فضلاً عن اتِّهامه بدعوته المسلمين إلى ترك دينهم، والإيمان به، ولولا تدخُّل شيخ الإسلام؛ لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سببـًا لحدوث خرافةٍ في الإنسانيَّة، حيث يدَّعي مريدوه بعروجه إلى السَّماء، كعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ)[٥]. فاكتفى بنفيه إلى مدينة دولسجنو في ألبانيا، وذلك في

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٤٣.
(٢) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، د. علي حسُّون، ص ٢٤٣.
(٣) انظر: يهود الدونمة، ص ٣٦.
(٤) المصدر السَّابق، ص ٤١.
(٥) المصدر السَّابق، ص ٤٢.

صيف عام ١٦٧٣م، وتوفِّي بعد خمس سنوات من نفيه، وظلَّت عقيدة الشِّبتائيَّة موجودةً لدى فِرق سالونيك، وتفنَّن أتباعه في ممارسة المكر، والتَّعصُّب والتَّجرُّد من المبادئ، والأخلاق[١].

وقد نظم «شبتاي زيفي» عقيدة الدُّونمة في ثماني عشرة مادَّةً، وفي الحقيقة تعدُّ المادَّة السَّادسة عشرة، والسَّابعة عشرة أهمَّ سمات الدُّونمة؛ إذ تشير المادَّة (١٦): (يجب أن تطبَّق عادات الأتراك بدقَّةٍ لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألا يُظهر أحدٌ من الأتباع تضايقه من صيام رمضان، ومن الأضحية، ولمن ينفِّذ كلَّ شيءٍ يجب تنفيذه أمام الملأ)[٢]. أمَّا المادَّة (١٧) فإنَّها تشير إلى الآتي: (إنَّ مناكحتهم ـ يعني: المسلمين ـ ممنوعةٌ قطعاً)[٣].

إنَّ شبتاي يعدُّ أوَّل يهوديٍّ بشَّر بعودة بني إسرائيل إلى فلسطين، وفي حقيقة الأمر، عُدَّت حركة زيفي حركةً سياسيَّةً ضدَّ سلطة الدَّولة العثمانيَّة أكبر من كونها حركةً دينيَّةً[٤].

لقد أسهمت هذه الطَّائفة في هدم القيم الإسلاميَّة في المجتمع العثماني، وعملت على نشر الإلحاد، والأفكار الغربيَّة، وانتشار الماسونيَّة، والدَّعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرِّجال، وخاصَّةً في المدارس، وكان الكثير من رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي يساهم في بعض نشاطاتها، وأفراحها.

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٤٣.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٤٥.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

(٤) المصدر السَّابق، ص ٤٦.

وقام يهود الدُّونمة بدورٍ فعَّالٍ في نصرة القوى المعادية للسُّلطان عبد الحميد، والَّتي تحرَّكت من سالونيك لعزله، وهم الَّذين سمَّموا أفكار الضُّبَّاط الشَّباب، ولا يزالون حتَّى وقتنا الحاضر يسعون لذلك، ولهم صحفٌ، ودور نشرٍ، وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني، وكلِّ مناحي الحياة في الدَّولة العثمانيَّة[١].

وقد استطاعوا أن يؤثِّروا في جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، وكان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عارفًا بحقيقة الدُّونمة، ويؤكِّد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصَّدد: (إنَّ الشَّخص الوحيد في تاريخ التُّرك جميعه، الَّذي عرف حقيقة الصَّهيونيَّة، والشِّبتائيَّة، وأضرارهما على التُّرك، والإسلام، وخطرهما تمامًا، وكافح معهما مدَّةً طويلةً بصورةٍ جدِّيَّةٍ لتحديد شرورهم هو السُّلطان التُّركيُّ العظيم ـ أي: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ـ كافح هذه المنظَّمات الخطيرة لمدَّة ثلاثٍ وثلاثين سنة بذكاءٍ، وعزمٍ، وبإرادةٍ مدهشةٍ جدّاً كالأبطال)[٢].

وفي حقيقة الأمر، اهتمَّ عبد الحميد بإبقاء الدُّونمة في ولاية سالونيك، وعدم وصولهم إلى الآستانة؛ بغية عدم السَّيطرة عليها، والتَّجنُّب من تحرُّكاتهم، ونتيجة للموقف الجادِّ من عبد الحميد إزاء فرقة الدُّونمة اتَّبعوا استراتيجيَّة مضادَّة له، حيث تحرَّكوا ضدَّه على مستوى الرَّأي العام العثماني، والجيش[٣].

---

(١) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، د. علي حسُّون، ص ٤٦.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد، والخلافة الإسلاميَّة للجندي، ص ١٠٧.

(٣) انظر: يهود الدُّونمة، ص ٨١.

ونتيجةً لموقف عبد الحميد من الدُّونمة، قام يهود الدُّونمة بالتَّعاون مع المحافل الماسونيَّة للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعاراتٍ معيَّنةً كالحرِّيَّة، والدِّيمقراطيَّة، وإزاحة المستبدِّ عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشِّقاق، والتَّمرُّد في الدَّولة العثمانيَّة بين صفوف الجيش، وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصَّهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدُّونمة يشكِّلون اللَّبنة الأولى لتنفيذ المخطَّطات اليهوديَّة العالميَّة[1].

ثانياً: السُّلطان عبد الحميد وزعيم اليهوديَّة العالميَّة (هرتزل):

استطاع زعيم الحركة اليهوديَّة الصَّهيونيَّة العالميَّة (تيودر هرتزل) أن يتحصَّل على تأييدٍ أوربيٍّ للمسألة اليهوديَّة من الدُّول (ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا) وجعل من هذه الدُّول قوَّةَ ضغطٍ على الدَّولة العثمانيَّة تمهيداً لمقابلة السُّلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه، وكانت الدَّولة العثمانيَّة تعاني من مشاكل ماليَّةٍ متعدِّدةٍ؛ إذ كانت الأحوال الاقتصاديَّة في البلاد على درجةٍ من السُّوء؛ بحيث فرضت الدُّول الأوربيَّة الدَّائنة وجود بعثةٍ ماليَّةٍ أوربيَّةٍ في تركيَّا العثمانيَّة للإشراف على أوضاعها الاقتصاديَّة ضماناً لديونها، الأمر الَّذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثَّغرة هي السَّبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثِّر على سياسة عبد الحميد الثَّاني تجاه اليهود. وفي هذا الصَّدد يقول هرتزل في مذكِّراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرةً تركيَّةً لإصلاح الأوضاع الماليَّة في تركيَّا... مليونان منها

(١) انظر: الحركة الإسلاميَّة الحديثة في تركيا لمحمَّد مصطفى، ص ٦٨ ـ ٦٩.

ثمناً لفلسطين، والباقي لتحرير تركيَّا العثمانيَّة بتسديد ديونها تمهيداً للتَّخلُّص من البعثة الأوربيَّة... ومن ثمَّ نقوم بتمويل السُّلطان بعد ذلك بأيِّ قروضٍ جديدةٍ يطلبها)[١].

لقد أجرى هرتزل اتِّصالاتٍ مكثَّفةً مع المسؤولين في ألمانيا، والنِّمسا، وروسيا، وإِيطاليا، وإِنجلترا، وكانت الغاية من هذه الاتِّصالات هي إِجراء حوار مع عبد الحميد الثَّاني. وفي هذا الصَّدد فقد نصح لاندو منذ ٢١ شباط ١٨٦٩ م الصَّديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشَّرق). وفي هذا المجال يقول هرتزل: (إِنْ نحن حصلنا على فلسطين، سندفع لتركيَّا كثيراً، أو سنقدِّم عطايا كثيرةً.. لكي يتوسَّط لنا، ومقابل هذا نحن مستعدُّون أن نسوِّي أوضاع تركيَّا الماليَّة، سنأخذ الأراضي الَّتي يمتلكها السُّلطان ضمن القانون المدني، مع أنَّه ربَّما لم يكن هناك فرق بين السُّلطة الملكيَّة والممتلكات الخاصَّة)[٢].

وقام هرتزل بزيارة إِلى القسطنطينيَّة، وذلك في حزيران عام ١٨٩٦م، ورافقه في هذه الزِّيارة نيولنسكي، الَّذي كانت له علاقة ودِّيَّةٌ مع السُّلطان عبد الحميد، ونتيجةً لذلك فقد نقل نيولنسكي آراء هرتزل إِلى قصر يلدز، وقد دارت محاورةٌ بين نيولنسكي والسُّلطان عبد الحميد؛ إِذ قال السُّلطان له: (هل بإِمكان اليهود أن يستقرُّوا في مقاطعةٍ أخرى غير فلسطين؟) أجاب نيولنسكي قائلاً: (تعتبر فلسطين

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١١٦.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١١٧.

هي المهد الأوَّل لليهود، وعليه فإنَّ اليهود لهم الرَّغبة في العودة إليها)، وردَّ السُّلطان قائلاً: (إنَّ فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط، وإنَّما تعتبر مهداً لكلِّ الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً: (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنَّهم سوف يحاولون الذَّهاب، وبكلِّ بساطةٍ إلى الأرجنتين)[١].

وقام السُّلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، ألا يتَّخذ خطواتٍ جديدةً حول هذا الموضوع، لأنِّي لا أستطيع أن أتنازل عن شبرٍ واحدٍ من الأراضي المقدَّسة، لأنَّها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض، وروَّوها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم، إذا مزّقت دولتي؛ فمن الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن لزم أن يبدأ التَّمزيق أوَّلاً في جثَّتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثَّتي وأنا على قيد الحياة)[٢].

• **وفي هذا الصَّدد يقول عبد الحميد في مذكِّراته:**

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدَّولة، وهذا يعني من جانب آخر أنَّه كان علينا أن ننهج اتِّباع سياسة تهجير خاصَّة، ولكنَّنا لا نجد أنَّ هجرة اليهود مناسبةٌ؛ لأنَّ غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا، وتقاليدنا؛ حتى لا يستطيعوا الهيمنة على زمام الأمور في الدَّولة)[٣].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٢٠.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

وبعد إِخفاق جهود هرتزل بواسطة نيولنسكي، اتَّجه هرتزل إِلى قصر وليم الثَّاني إِمبراطور ألمانيا، ولا سيَّما أنَّه كان صديقًا لعبد الحميد، بالإِضافة إِلى كون وليم الثَّاني هو الحليف الوحيد للعثمانيِّين في أوربَّة[١]، إِلا أنَّ مساعيه لم تكلَّل بالنَّجاح. يقول المؤرِّخ التُّركي نظام الدِّين نظيف في كتابه «إِعلان الحرِّيَّة والسُّلطان عبد الحميد الثَّاني»: (.. عندما ردَّ طلب الوفد اليهوديِّ ـ المسند من قبل الإِمبراطور وليم ـ في الحصول على وطنٍ لهم، أي: عندما خاب هرتزل في مسعاه؛ اشتدَّ العداء ضدَّ «يلدز» وهذا ما كان يتوقَّعه عبد الحميد، لأنَّ اليهود قومٌ يتقنون العمل المنظَّم، وكانت لديهم قوىً عديدةٌ تضمن لهم النَّجاح في مسعاهم، فالمال متوفِّرٌ لديهم، وكانوا يسيطرون على أهمِّ العلاقات التِّجاريَّة الدَّوليَّة، وكانت صحافة أوربَّة في قبضتهم، فكان في مقدورهم إِطلاق العواصف الَّتي يريدونها لدى الرَّأي العام متى شاؤوا...)[٢].

يردف المؤرِّخ التُّركيُّ قائلاً: (بدؤوا أوَّلاً بتحريك الصَّحافة العالميَّة، ثمَّ أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الَّذين نشؤوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد أنصار المشروطيَّة يتَّخذون طابعًا منظَّمًا، وهجوميًّا، علمًا بأنَّهم كانوا حتَّى ذلك الوقت متفرِّقين، ويعملون دون نظامٍ، ودون تنسيقٍ؛ إِذ لم يكن صعبًا عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الَّذين نشؤوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط. وقد أخذ «المشرق الأعظم الماسوني الإِيطالي» على عاتقه هذه المهمَّة في التَّوحيد والتَّنسيق؛ لأنَّه كان أقرب مركزٍ ماسونيٍّ للإِمبراطوريَّة

(١) المصدر السَّابق، ص ١٢١.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد، حياته، وأحداث عهده، محمَّد أورخان، ص ٢٨١ ـ ٢٨٢.

العثمانيَّة. ولعبت المحافل الإيطاليَّة وخاصَّةً محفل «ريزوتا» في سالونيك دوراً ملحوظاً...)[١].

إزاء هذا الإخفاق قرَّر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثَّاني، حيث عرض عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضيَّة الأرمنيَّة[٢] وفي هذا الصَّدد يقول هرتزل: (طلب منِّي السُّلطان أن أقوم بخدمةٍ له، وهي أن أؤثِّر على الصُّحف الأوربيَّة بغية قيام الأخيرة بالتَّحدُّث عن القضيَّة الأرمنيَّة بلهجةٍ أقلَّ عداءً للأتراك. أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمَّة، ولكنِّي أكَّدت على إعطائي فكرةً وافيةً عن الوضع الأرمنيِّ: مَنْ هم الأشخاص في لندن الَّذين يجب أن أقنعهم بما يريدون، وأيُّ الصُّحف يجب أن نستميلها لجهتنا، وغير ذلك)[٣].

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدِّبلوماسيَّة الصَّهيونيَّة لإقناع الأرمن بالتَّخلِّي عن ثورتهم. ونتيجةً لذلك فقد اتَّصل هرتزل مع سالزبوري، والمسؤولين الإنجليز بغية استخدامهم للضَّغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوربيَّة أخرى، مثل فرنسا للقيام بنفس الدَّور. إلا أنَّ دبلوماسيَّة هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمُّس بريطانيا؛ لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبد الحميد، الأمر الذي يؤدي لإثارة الرَّأي العامِّ البريطانيِّ ضدَّ الحكومة[٤].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٨٢.

(٢) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٣٢.

(٣) المصدر السَّابق، ص ١٣٧.

(٤) المصدر السَّابق، ص ١٣٨.

وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثَّاني، ولا سيَّما أثناء الزِّيارة الثَّانية للإمبراطور وليم الثَّاني إلى القسطنطينيَّة، إلا أنَّ موظَّفي قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمرَّ هرتزل في محاولاته المستمرَّة حتَّى تكلَّلت جهوده بالنَّجاح بعد سنتين (١٨٩٩ ـ ١٩٠١م) من الاحتكاك المباشر مع الموظَّفين الكبار لقصر يلدز من مقابلة عبد الحميد، حيث قابل السُّلطان لمدَّة ساعتين، وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهوديَّة الغنيَّة في أوربَّة بمساعدة الدَّولة العثمانيَّة لقاء السَّماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة إلى ذلك فإنَّه قد أكَّد لعبد الحميد: أنَّه سوف يخفِّف الدُّيون العامَّة للدَّولة العثمانيَّة، وذلك منذ عام ١٨٨١م، وقد وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السِّرِّيَّة معه[١].

كان السُّلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعًا أكثر منه متكلِّمًا، وكان يرخي لهرتزل في الكلام؛ كي يدفعه أن يتحدَّث بكلِّ ما يخطر في مخيَّلته من أفكارٍ، ومشروعاتٍ، ومطالب، وقد أدَّى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنَّه نجح في مهمَّته هذه، ولكنَّه أدرك في نهاية الأمر بأنَّه قد أخفق مع عبد الحميد، وأنَّه أخذ يسير في طريقٍ مسدودٍ معه[٢].

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثَّاني، تحدَّث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السُّلطان فلسطين لليهود سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع الماليَّة، أمَّا في القارَّة الأوربيَّة؛ فإنَّنا سنقوم بإيجاد حصنٍ منيعٍ ضدَّ آسيا، وسوف نبني حضارةً ضدَّ التَّخلُّف، كما سنبقى في جميع أنحاء أوربَّة بغية ضمان وجودنا)[٣].

---

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٤١.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السَّابق نفسه.

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى أنَّه من الضَّروري عدم توطين اليهود في فلسطين، كي يحتفظ العنصر العربيُّ بتفوُّقه الطَّبيعيِّ. وفي هذا الصَّدد يقول: (... ولكن لدينا عددٌ كافٍ من اليهود، فإذا كنَّا نريد أن يبقى العنصر العربيُّ متفوِّقًا؛ علينا أن نصرف النَّظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإنَّ اليهود إذا استوطنوا أرضًا؛ تملَّكوا جميع قدراتها خلال وقتٍ قصيرٍ، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدِّين بالموت المحتَّم)[١].

وكانت الدَّولة العثمانيَّة تسعى في أحيانٍ كثيرةٍ إلى إبعاد اليهود العثمانيِّين عن أفكار هرتزل، والحركة الصَّهيونيَّة، ومع ذلك فإنَّها في أحيانٍ أخرى كانت تستخدم لغة التَّهديد معهم. وفي هذا الصَّدد أوضح علي فرُّوخ بك للوسائل الإعلاميَّة الأجنبيَّة، وبصراحةٍ تامَّةٍ: (إنَّه لبعيدٌ من الصَّواب أن يقوم الصَّهاينة على خلق صعوباتٍ للحكومة العثمانيَّة، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكنَّ هذه الصُّعوبات سوف تؤدِّي في نهاية الأمر إلى إلحاق الأذى بوجودهم السِّلمي، والسَّعيد في الدَّولة العثمانيَّة... وهذه النُّقطة واضحةٌ بالنِّسبة لعلاقة العثمانيِّين مع رعايا الأرمن؛ لأنَّ قلَّةً من المتمرِّدين الَّذين قاموا على ارتكاب الخطأ، والحماقة معتمدين إلى الإرشاد الميكافلي قد أدَّى في نهاية الأمر أن يندموا على ما فعلوه، من دون التَّوصُّل إلى أيَّةِ نتيجةٍ)[٢].

وعلى الرَّغم من إخفاق جهود هرتزل عند السُّلطان عبد الحميد؛ كتب هرتزل، قائلاً: (يجب تملُّك الأرض بواسطة اليهود بطريقةٍ تدريجيَّةٍ، دونما حاجةٍ إلى

(١) المصدر السَّابق، ص ١٤٦.

(٢) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٤١.

استخدام العنف، سنحاول أن نشجِّع الفقراء من السُّكَّان الأصليِّين على النُّزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمالٍ لهم هناك، مع حظر تشغيلهم في بلدنا. إنَّ الاستيلاء على الأرض سيتمُّ بواسطة العملاء السِّرِّيِّين للشَّركة اليهوديَّة الَّتي تتولَّى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوةً على ذلك تقوم الشَّركة اليهوديَّة بالإشراف على التِّجارة في بيع العقارات، وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم[١].

وكتب هرتزل قائلاً: (أقرُّ على ضوء حديثي مع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني أنَّه لا يمكن الاستفادة من تركيَّا إلا إذا تغيَّرت حالتها السِّياسيَّة، أو عن طريق الزَّجِّ بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزَّجِّ بها في مشكلاتٍ دوليَّةٍ، أو بالطَّريقتين معـًا في آنٍ واحدٍ)[٢].

إنَّ عبد الحميد كان يعرف أهداف الصَّهيونيَّة؛ حيث قال في مذكِّراته السِّياسيَّة: (لن يستطيع رئيس الصَّهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره، وقد يكون قوله: ستحلُّ المشكلة اليهوديَّة يوم يقوى فيها اليهوديُّ على قيادة محراثه بيده، صحيحـًا في رأيه: أنَّه يسعى لتأمين أرضٍ لإخوانه اليهود، لكنَّه ينسى أن الذَّكاء ليس كافيـًا لحلِّ جميع المشاكل.. لن يكتفي الصَّهاينة بممارسة الأعمال الزِّراعيَّة في فلسطين، بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومةٍ، وانتخاب ممثِّلين، إنِّني أدرك أطماعهم جيِّداً، لكنَّ اليهود سطحيُّون في ظنِّهم: أنَّني سأقبل بمحاولاتهم.

(١) المصدر السَّابق، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٤٧.

وكما أنَّني أقدِّر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي، فإنِّي أعادي أمانيهم، وأطماعهم في فلسطين)[١].

وعن القدس يقول عبد الحميد الثَّاني: (لماذا نترك القدس.. إنَّها أرضنا في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ زمانٍ، وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدَّسة، وتقع في أرضٍ إسلاميَّةٍ، لا بدَّ أن تظلَّ القدس لنا)[٢].

لقد كان غرض السُّلطان عبد الحميد في استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:

١ ـ حقيقة الخطط اليهوديَّة.

٢ ـ معرفة قوَّة اليهود العالميَّة، ومدى قوَّتها.

٣ ـ إنقاذ الدَّولة العثمانيَّة من مخاطر اليهود[٣].

وشرع السُّلطان عبد الحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الدَّاخليَّة، والخارجيَّة لمتابعة اليهود، وكتابة التَّقارير عنهم، وأصدر إرادتين سنيتين: الأولى في ٢٨ يونيو ١٨٩٠ م، والأخرى في ٧ يوليو ١٨٩٠ م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشَّاهسانيَّة) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرُّعات المسألة، واتِّخاذ قرارٍ جدِّيٍّ وحاسمٍ في شأنها)[٤].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٤٨.

(٢) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ٥٧.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٥٦.

(٤) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ٨٨.

واتَّخذ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني كلَّ التَّدابير اللَّازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أيِّ امتيازٍ لليهود من شأنه أن يؤدِّي إلى تغلُّب اليهود على أرض فلسطين. ولا بدَّ في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظَّمات الصَّهيونيَّة بغية إبعاد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني من الحكم. ويعزِّز هذا القول هرتزل عندما قال: (إنِّي أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإنَّ اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السُّلطان عبد الحميد قائمًا في الحكم، مستمرّاً فيه)[1].

وتحرَّكت الصَّهيونيَّة العالميَّة، لتدعم أعداء السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وهم المتمرِّدون الأرمن، والقوميّون في البلقان، وحركة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي، والوقوف مع كلِّ حركةٍ انفصاليَّةٍ عن الدَّولة العثمانيَّة[2].

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٥٨.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني لمحمَّد حرب، ص ٢٣٤.

المبحث الرَّابع

السُّلطان عبد الحميد وجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي

كان الشَّباب العثمانيُّ المثقَّف في النِّصف الثَّاني من القرن التَّاسع عشر قد تأثَّر بأفكار الثَّورة الفرنسيَّة؛ الَّتي حققت حكمـًا ديمقراطيّـًا في فرنسا، وأتت بأفكار القوميَّة، والعلمانيَّة، والتَّحرُّر من حكم الفرد، وكذلك تأثَّر بالحركة القوميَّة الإيطاليَّة الَّتي قادها (ماتزيني) بنظمها، وخلاياها، وكانت الدَّولة العثمانيَّة قد تعرَّضت لحملاتٍ عسكريَّةٍ، وإعلاميَّةٍ، غرضها إضعاف الدَّولة، ومن ثمَّ العمل على تفتيتها، وكانت الدُّول الأوربيَّة تتَّخذ من أوضاع النَّصارى في الدَّولة حجَّةً للتَّدخُّل، وفي هذه الظُّروف وبالضَّبط في عام ١٨٦٥م كان ستَّةٌ من الشَّباب العثمانيِّين المثقَّفين يُسَرُّون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي إسطنبول تسمَّى (غابة بلغراد).

تحدَّث هؤلاء الشَّباب في موضوعاتٍ سياسيَّةٍ، وخرجوا بفكرة تكوين جمعيَّةٍ سرِّيَّةٍ، على نمط جمعيَّة (إيطاليا الفتاة) الَّتي أسَّسها الزَّعيم الإيطالي (ماتزيني) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الإيطاليَّة تحت راية الجمهوريَّة، أطلق هؤلاء الشَّباب على جمعيَّتهم هذه اسم (اتِّفاق الحميَّة) ومن ضمن هؤلاء الشُّبَّان الشَّاعر الَّذي أصبح فيما بعد واسع الشُّهرة: نامق كمال. ورأوا: أنَّ العمل لا بدَّ أن يكون في شكل تعريف الشَّعب بحقوقه السِّياسيَّة، وحصوله عليها، وبالتَّالي فإنَّ رغبة الشُّعوب النَّصرانيَّة في الاستقلال بمناطقها عن الدَّولة لن تجد لها ما يبرِّرها من تدخُّل أجنبيٍّ بحجَّة مساندة الأقلِّيَّات الدِّينيَّة، وكانوا يرون: أنَّ إنقاذ الدَّولة من حالة التَّردِّي الَّتي وصلت إليها يكون بإيجاد نظامٍ سياسيٍّ ديمقراطيٍّ.

وكان في فرنسا في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الَّذي نازع فؤاد باشا رغبةً في تولِّي عرش مصر، وفي فرنسا أعلن الأمير أنَّه ضمن التَّيَّار المنادي بالدُّستور في الدَّولة العثمانيَّة، وقدَّم نفسه بعبارة ممثِّل حزب تركيَّا الفتاة، وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوربيَّة المعنيَّة، فشاع اسم «حزب تركيَّا الفتاة» في أوربَّة.

التحق ثلاثةٌ من الإعلاميِّين الثَّوريِّين العثمانيِّين هم: نامق كمال، ومحمَّد ضياء، وعلي سعاوي، بالأمير المصري مصطفى فاضل في باريس، وكوَّنوا منظَّمةً أسموها «جمعيَّة العثمانيِّين الجدد».

وكان أبرز شخصيَّات جمعيَّة العثمانيِّين الجدد إعلاميِّين، وشعراء، وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال، وعلي سعاوي. وكان من أشهر تلك الشَّخصيَّات تأثيراً على السَّاحة الأوربيَّة نامق كمال؛ الَّذي تثقَّف ثقافة إسلاميَّةً، وكما تأثَّر بفلاسفة الثَّورة الفرنسيَّة، مثل (روسو). وله حياةٌ أدبيَّةٌ واسعةٌ، وكتاباتٌ امتدَّت عبر ربع قرن عبَّر عن أفكاره من خلال الشِّعر، والإعلام، والكتابة، والتَّاريخ، وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلةٍ هي:

١ ـ ما أسباب انحطاط الدَّولة العثمانيَّة؟

٢ ـ ما الطُّرق الَّتي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

٣ ـ ما الإصلاحات اللازم عملها في هذا السَّبيل؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاطٍ رئيسيَّة، هي:

١ ـ أسباب انحطاط الدَّولة العثمانيَّة أسبابٌ اقتصاديَّةٌ، سياسيَّةٌ.

٢ ـ التَّربية: هي الطَّريق الَّتي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

٣ ـ الإصلاح الرَّئيسي الواجب عمله، هو: البدء بإقامة نظام دولةٍ مركزيَّةٍ دستوريَّةٍ.

وكان نامق كمال يرى أنَّ حركة التَّنظيمات العثمانيَّة استبدلت بسلطة السَّلاطين سلطة الباب العالي، أي: الصُّدور العظام الوزراء. لذلك فإنَّ النِّظام الَّذي جاءت به التَّنظيمات نظامٌ أقلُّ من النِّظام العثماني القديم، لذلك لم تستطع التَّنظيمات أن تحقِّق نهضةً اقتصاديَّةً في الدَّولة، وفتحت هذه التَّنظيمات الباب على مصراعيه لتدخُّل الدُّول الأوربيَّة في الشُّؤون العثمانيَّة الدَّاخليَّة.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطَّبيعيَّة الَّتي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربيَّة المعاصرة، وقدَّم نامق كمال مشروعاً للدُّستور العثماني إلى مدحت باشا، وكان متأثِّراً بالدُّستور الفرنسي (دستور نابليون الثَّالث عام ١٨٥٢م). ورأى نامق كمال أنَّ هذا هو المناسب تماماً لظروف الدَّولة العثمانيَّة في ذلك الوقت، وكان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا، ولذلك تأثَّر بقرار السُّلطان عبد الحميد في عزله، وقد تحدَّث السُّلطان عبد الحميد عن نامق كمال في مذكِّراته: (كان كمال بك أكثر مَنْ لفت انتباهي من بين عدَّة أشخاصٍ أطلقوا على أنفسهم «العثمانيُّون الجدد». كان إنساناً مضطَّرباً جدّاً، لا تتوافق حياته العائليَّة مع حياته الخاصَّة، ولا تتوافق حياته القلميَّة مع حياته الفكريَّة.

يمكن أن تجزم بأنَّ إنساناً ما يستطيع عمل أمرٍ ما، أو لا يستطيع، لكنَّك لا تستطيع القطع بهذا بشكلٍ من الأشكال؛ وأنت تفكِّر في كمال بك، ذلك لأنَّه هو

نفسه لا يعرف نفسه، تستطيع القول: إِنَّه واحدٌ من الأشخاص النَّادرين؛ الَّذين يحيون حياتين مزدوجتين، كلُّ حياةٍ تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قربٍ يعرفون أنَّه عندما كان على وئامٍ مع السَّراي؛ كتب «التَّاريخ العثماني» وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون: أنَّه قطع رأس التنِّين بقوله: «كلبٌ هو الَّذي يأمن لخدمة صيَّادٍ غير منصف». إِنَّه إِنسانٌ متقلِّبٌ، ربَّما كان إِنسانًا مخلصًا جدّاً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكِّر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد السَّاعات، أو الأيَّام الَّتي سيحمل فيها هذه الأفكار)[1].

بعد أن وجد السُّلطان عبد الحميد أنَّ جماعة العثمانيِّين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطًا متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانيَّة الرُّوسيَّة؛ عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعيَّة؛ فبدأ بنفي كبيرها وهو الصَّدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرةً قامت ضدَّ السُّلطان مؤامرتان لخلعه. واحدةٌ: بقيادة علي سعاوي، وهو من أعضاء هذه الجمعيَّة. والأخرى: ماسونيَّةٌ قامت بها جمعيَّة كلانتي سكاليري ـ عزيز.

والمؤامرتان مدعومتان من إِنجلترا، وفشلت كلتاهما، لكنَّهما جعلتا السُّلطان يتشدَّد في مراقبة الفكر الوافد، والمتأثِّرين به، وقامت أثناء ذلك أيضًا خليَّةٌ سرِّيَّةٌ، من طلاب المدرسة الحربيَّة في إسطنبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السُّلطان عبد الحميد، حيث استطاع أحد أعضاء جمعيَّة (كلانتي ـ عزيز بك) الماسونيَّة وهو: (علي شفقتي بك) الفرار إِلى نابُولي، وإِلى جنيف،

(١) مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، ص ٤٧.

حيث أصدر بين عامي ١٨٧٩م و ١٨٨١م جريدةً مناهضةً للحكم العثمانيِّ، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفي عام ١٨٨٩م تأسَّست منظَّمةٌ طلابيَّةٌ في المدرسة العسكريَّة الطِّبِّيَّة في إسطنبول، حيث كان بعض الأساتذة هناك يحرِّضون الطُّلاب بشكلٍ، أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيِّين الجدد بين الطُّلاب، وكان المؤسِّس لهذه المنظَّمة إبراهيم تيمو الرُّوماني الَّذي تأثَّر بالمحافل الماسونيَّة الإيطاليَّة، وأطلق على هذه المنظَّمة: الاتِّحاد العثماني، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثَّورة الفرنسيَّة المئويَّة، تاريخًا لإنشاء منظَّمتهم، وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السُّلطان عبد الحميد، وتكوين دولةٍ مناسبةٍ لأفكار العصر السِّياسيَّة، تتَّخذ من الدُّول الغربيَّة نموذجًا لها، مثل إنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، والمناداة بالدُّستور، والحرِّيَّة، والدِّيمقراطيَّة[1].

ومن المدرسة العسكريَّة الطِّبِّيَّة سرت أفكار جمعيَّة (الاتِّحاد العثماني) إلى مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعيَّة الاتِّحاد هذه سرِّيَّةً على نظام جمعيَّة (الكاربوناري) الإيطاليَّة.

ولم تكن الجمعيَّة متعجِّلةً، لا في الدِّعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضدَّ السُّلطان، حتَّى إنَّ أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة بورصة، وسافر عام ١٨٨٩م إلى باريس بحجَّة حضور معرض باريس الدَّولي، ووصل إلى هناك، وأعلن أنَّه لن يرجع إلى بلاده، ومكث في فرنسا

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٧٩.

حوالي ستِّ سنواتٍ، لم تصدر عنه حركة معارضةٍ جديرةٌ بالتَّسجيل إلى حين أصدر جريدته (مشورات) عام ١٨٩٥م.

ويذكر مؤسِّس جمعيَّة الاتِّحاد ـ وهو إبراهيم تيمو ـ: أنَّه كان يمضي أوقاته في الخارج ـ حتَّى عام ١٨٩٥م ـ بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظَّمتهم، لتربيتهم تربيةً ثوريَّةً، ويعقد الاجتماعات السِّرِّيَّة، وقراءة الأعمال الأدبيَّة الَّتي ألَّفها أعضاء جمعيَّة العثمانيِّين الجدد، مثل نامق كمال، وضياء باشا، وقراءة منشورات «علي شفقتي بك» عضو كلانتي الماسونيَّة، وكان فارّاً في أوربَّة[1].

ونتيجة للمراسلات السِّرِّيَّة بين أعضاء جمعيَّة الاتِّحاد العثماني السِّرِّيَّة في الدَّاخل، وفي الخارج تمَّ الاتِّفاق على وحدة العمل العسكريِّ، والمدنيِّ ضدَّ السُّلطان، وعلى اعتماد اسم (جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي) للجناحَين المعارضَين، العسكري، والمدني، اللذَين يعملان في إطار الجمعيَّة.

كان اسم الجمعيَّة في الأوساط العسكريَّة هو (الاتِّحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك ـ ممثِّل الجناح المدني ـ متأثِّراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت) وكان دستور هذا الفيلسوف هو: (الانتظام والتَّرقِّي). فأخذ أحمد رضا كلمة (التَّرقِّي) استلهاماً من دستور «كانت» واحتفظ العسكريُّون بمسمَّى (الاتِّحاد)، واتَّفق الجميع أن تكون جمعيَّتهم باسم (الاتِّحاد والتَّرقِّي)[2].

لقد تغلغلت خلايا (الاتِّحاد والتَّرقِّي) في وحدات الجيش، وبين موظَّفي الدَّولة من المدنيِّين، واتَّحدا في العمل الموحَّد بعد اتِّفاق جناحيهما العسكريِّ

(١) انظر: مذكِّرات إبراهيم تيمو، ص ٩.

(٢) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٨٠ ـ ٢٨١.

والمدنيِّ في باريس، للعمل الفعلي ضدَّ السُّلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعيَّة بالفعل إِجبار السُّلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إِعلان الدُّستور الَّذي كان قد أمر سابقًا عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[١].

وكان الفكر السِّياسيُّ لجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي يؤكِّد على المفاهيم الطُّورانيَّة على المستويَين الدَّاخلي، والخارجي، والطُّورانيَّة تسمية تشير إِلى وطن الأتراك الأصلي، ونسبته إِلى جبل توران الواقع في المنطقة الشَّماليَّة الشَّرقيَّة في إِيران[٢]، وكان داخل حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي اتِّجاهٌ قويٌّ يؤكِّد أنَّ التُّرك هم من أقدم أمم الأرض، وأعرقها مجداً، وأسبقها إِلى الحضارة، وأنَّهم هم والجنس المغولي واحدٌ في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمُّون ذلك بالجامعة الطُّورانيَّة، ولم يقتصروا فيها على التُّرك الَّذين في سيبيريا، وتركستان، والصِّين، وفارس، والقوقاز، والأناضول، وروسيا، وكان شعارهم عدم التَّديُّن، وإِهمال الجامعة الإِسلاميَّة إِلا إِذا كانت تخدم القوميَّة الطُّورانيَّة، فتكون عندئذٍ وسيلةً لا غايةً، وهذا يعني أنَّ هذا الاتِّجاه يدعو إِلى إِحياء عقائد التُّرك الوثنيَّة السَّابقة على أسلافهم، كالوثن التُّركيِّ القديم (بوزقورت) أو الذِّئب الأبيض ـ الأسود الَّذي صوَّروه على طوابع البريد، ووضعوا له الأناشيد، وألزموا الجيش أن يصطفَّ لإِنشادها عند كلِّ غروب. وكأنَّهم يحلُّون تحيَّة الذِّئب محلَّ الصَّلاة، مبالغةً منهم في إِقامة الشُّعور العرقي محلَّ الشُّعور الإِسلامي.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التَّاريخ أمثال: أتلاو، وطغرك، وجنكيزخان، وتيمورلنك.

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٨١.

(٢) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٦٣.

وقد تطرَّف هذا الاتِّجاه في الطُّورانيَّة؛ إذ قالوا: (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنَّون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئًا من أعمالهم، وينظِّمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزيَّة ليطبعوهم على الإعجاب، ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم، ويمثِّل هذا الاتِّجاه كلٌّ مِن: فياكوك ألب[1] يوسف أقثور، وجلال ساهر، ويحيى كمال، وحمد الله صبحي، ومحمَّد أمين بك الشَّاعر، وكثيرٌ من الأدباء والمفكِّرين وأكثر الطَّلبة، والنَّشء الجديد.

وكان تأثير اليهود على الطُّورانيَّة أمراً واضحًا، وفي هذا الصَّدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيَّا):

(إنَّ لليهود الأوروبيِّين واليهود المحلِّيِّين في الدَّولة العثمانيَّة في القرنين التَّاسع عشر، والعشرين دوراً ضخمًا في إرساء تيار القوميَّة الطُّورانيَّة، فالعلماء اليهود في الغرب مثل لومالي دافيد، وليون كاهون، وأرمينيوس فاميري تصدَّوا للكتابة عن أصول الفكرة القوميَّة الطُّورانيَّة، كما أنَّ اليهود المحلِّيِّين في الدَّولة العثمانيَّة، مثل كراسوا ـ قراصو ـ وموئيز كوهين، وإبراهام غالانتي، كان لهم ضلعٌ في جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، وبمجرَّد أن نجحت هذه الجمعيَّة في الإطاحة بحكم عبد الحميد، ومن ثمَّ الاستيلاء على السُّلطة تقدَّم الصَّهاينة إلى الاتِّحاديِّين برغبتهم في أن تعترف الجمعيَّة بفلسطين وطنًا قوميًّا لليهود...)[2].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١٦٥.

(٢) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ١١٩.

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السَّابق اسم اليهوديِّ «موئيز كوهين» الَّذي وصفه رينيه بيلو قائلاً:

١ ـ إِنَّ كوهين هو من مؤسِّسي الفكر القومي الطُّوراني في الدَّولة العثمانيَّة.

٢ ـ إِنَّ كتاب موئيز كوهين هو الكتاب المقدَّس للسِّياسة الطُّورانيَّة[١].

كان اليهوديُّ موئيز كوهين نشطًا جدّاً في التَّعريف بحركة الاتِّحاد والتَّرقِّي في الصُّحف الأوربيَّة، فقد كان يعرف بجانب العبريَّة، والتُّركيَّة عدَّة لغاتٍ أوربيَّةٍ، وبدأ هذا بمقالٍ باللُّغة الفرنسيَّة يحمل عنوان: (الأتراك يبحثون عن روحٍ قوميٍّ)[٢].

لقد أسهم موئيز كوهين في التَّخطيط للسِّياسة العنصريَّة الطُّورانيَّة الَّتي سارت عليها جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، وهي السِّياسة الَّتي شقَّت شعوب الدَّولة العثمانيَّة، وأوجدت بينها العداوة، والبغضاء.

وكان هذا اليهوديُّ لا يكلُّ، ولا يملُّ في نشر الفكر القوميِّ التُّركي لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة. وكتب ثلاثة كتب اعتُمِدت عند جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، وهي: (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب) و (الطُّوران) و (سياسة التَّتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهوديُّ في الكتابة للفكر الكمالي بكتابه: (الكماليَّة) وكتابه: (الرُّوح التُّركيَّة) الَّذي أرَّخ فيه تطوُّر العنصر التُّركي[٣].

---

(١) المصدر السَّابق، ص ١١٩.

(٢) المصدر السَّابق، ص ١٢٠.

(٣) المصدر السَّابق، ص ١٢٢.

لقد قامت جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي على إِثارة المشاعر القوميَّة عند الأتراك، تحت حلم الطُّورانيَّة، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل: الوطن، والدُّستور، والحرِّيَّة، وكانت هذه المفاهيم غريبةً على العثمانيِّين، وقد ضمَّت في صفوفها مجموعةً من الشَّباب المثقَّفين الأتراك، بالإِضافة إِلى يهود الدُّونمة، وكانت الغاية منها الإِطاحة بحكم عبد الحميد الثَّاني[١].

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٦٨.

المبحث الخامس

الإطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني

كان السُّلطان عبد الحميد الثَّاني شديد الحذر من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي المدعومة باليهود، والمحافل الماسونيَّة، والـدُّول الغربيَّة، واستطاع جهاز مخابرات السُّلطان عبد الحميد أن يتعرَّف على هذه الحركة، ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أنَّ هذه الحركة كانت قويَّةً، وقد جاءت مراقبةُ عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة في وقتٍ متأخِّرٍ، حيث دفعوا الأهالي إلى مظاهراتٍ صاخبةٍ في سلانيك، ومناستر، وأسكوب، وسوسن مطالبين بإعادة الدَّستور، بالإضافة إلى أنَّ المتظاهرين هدَّدوا بالزَّحف على القسطنطينيَّة. الأمر الَّذي أدَّى بالسُّلطان إلى الخضوع لمطالب المتظاهرين؛ حيث قام بإعلان الدُّستور، وإحياء البرلمان، وذلك في ٢٤ تمُّوز ١٩٠٨م، وكانت هناك عدَّة أسباب جعلت من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي تبقي السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في تلك الفترة على العرش منها:

١ ـ لم تكن في حوزة الاتِّحاد والتَّرقِّي القوَّة الكافية لعزله في عام ١٩٠٨م.

٢ ـ اتِّخاذ عبد الحميد الثَّاني سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدُّستور.

٣ ـ ولاء العثمانيِّين لشخص السُّلطان عبد الحميد. وهذه النُّقطة واضحةٌ؛ حيث إن لجنة الاتِّحاد والتَّرقِّي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بين الجنود؛ لأنَّ هؤلاء كانوا يبجِّلون السُّلطان[1].

---

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ١٦٨.

إِنَّ الصَّهيونيَّة العالميَّة لم تقتصر على الانقلاب الدُّستوري لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لا بدَّ من التَّخلُّص من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني نهائيًّا، ولذلك دبَّرت أحداث ٣١ أبريل ١٩٠٩م في إسطنبول، وترتَّب على أثرها اضطرابٌ كبيرٌ، قُتل فيه بعض عسكر جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، عرف الحادث في التَّاريخ باسم حادث ٣١ مارت.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيطٍ أوربيٍّ يهوديٍّ مع رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي، وتحرَّك على أثره عسكر الاتِّحاد والتَّرقِّي من سلانيك، ودخل إسطنبول، وبهذا تمَّ عزل خليفة المسلمين السُّلطان عبد الحميد الثَّاني من كلِّ سلطاته المدنيَّة والدِّينيَّة، ثمَّ وجَّهت إِليه جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي التُّهم التَّالية:

١ ـ تدبير حادث ٣١ مارت.

٢ ـ إِحراق المصاحف.

٣ ـ الإسراف.

٤ ـ الظُّلم، وسفك الدِّماء[١].

مع أنَّ جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي العثمانيَّة تبنَّت الأفكار الغربيَّة المضادَّة للإِسلام، وللفكر الإِسلامي؛ لكنَّها استغلَّت الدِّين عند مخاطبتها للنَّاس للتَّأثير فيهم، وكسب أنصارٍ لهم في معركتهم ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وقد نجحوا في ذلك.

---

(١) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ٥٠.

تقول الجمعيَّة في بياناتها إلى العثمانيِّين: (أيُّها العثمانيُّون! إنَّ مقصدنا هو سلامة الدَّولة، والخلافة، ولم يعد أحدٌ يجهل هذا)، (وبعون الباري وهمَّة الإخوان) و(أيُّها المسلمون! كفانا أن نقوم بدور المتفرِّج على سلطان جبَّارٍ، عديم الإيمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضَّمير والإيمان) و(استيقظوا يا أمَّة محمَّد!) و(الشَّجاعة الشَّجاعة يا مسلمون! الشَّجاعة منَّا والعون من الله، نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ) و(أيُّها المسلم الموحِّد! اقرأ باسم ربِّك) و(انهض أيُّها المسلم الموحِّد! وأنقذ دينك، وإيمانك من يد الظَّالمين. وأنقذ بذلك نفسك! فهنا شيطانٌ جبَّارٌ يحمل فوق رأسه تاجًا، وفي يده دينك، وإيمانك. فأنقذ دينك منه، وإيمانك أيُّها الموحِّد) و(يا أيُّها المسلمون! إنَّ السُّلطان عبد الحميد ـ شرعًا ـ ليس بسلطانٍ، ولا خليفة! ومن لا يصدِّق قولنا هذا فلينظر في الكتاب، والسُّنَّة، لقد أبرزت جمعيَّتنا بالآيات القرآنيَّة، والأحاديث النَّبويَّة، وأوامر الله، وأوامر الرَّسول الموجَّهة إلى الحكومة والأهالي، لكنَّ السُّلطان عبد الحميد أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر الله، وأوامر الرَّسول، وبالتَّالي أثبت ظلمه، ولم يخجل من الاعتراض على الله؛ لذلك ينبغي على شعبنا أن يلجأ إلى السِّلاح ضدَّه، وإذا لم يفعل الشَّعب هذا؛ فليتحمَّل إذاً وزر ما عليه السُّلطان عبد الحميد من ظلم)[1].

لقد كان الفكر الحاكم في اتِّجاهات جمعيَّة (الاتِّحاد والتَّرقِّي)، هو: الماسونيَّة، وهي لا تعترف بالأديان، والفلسفة الوضعيَّة (العقلانيَّة، وهي

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣.

تنفي الدِّين) والعلمانيَّة (وهي تبعد الدِّين عن الحياة)، ومع ذلك استخدم الثُّوَّار الاتِّحاديُّون الدِّينَ لمحاربة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وافتروا عليه باسم الدِّين[١].

إنَّ التُّهم الَّتي وجِّهت للسُّلطان عبد الحميد الثَّاني لا تثبت أمام البحث العلميِّ، ولا أمام الحجج، والبراهين الدَّالَّة على براءته الكلِّيَّة ممَّا ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلَّة عدم علم السُّلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت، كما أنَّه (من المحال إحراق السُّلطان عبد الحميد للمصاحف، فهو سلطانٌ معروفٌ بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصَّلاة، وإهماله للتَّعبُّد، كما أنَّه معروفٌ بعدم إسرافه، ولأنَّه لا يعرف الإسراف؛ فقد كان المال يتوفَّر معه دائماً، ولذلك فقد أزاح عن كاهل الدَّولة أعباءً كثيرةً من ماله الخاصِّ).

وأمَّا عن ظلمه، وسفكه للدِّماء فلم يعرف عن السُّلطان عبد الحميد هذا، وسفك الدِّماء لم يكن أبداً ضمن سياسته[٢].

ولم يغبْ عن بال الانقلابيِّين الضَّغط على مفتي الإسلام محمَّد ضياء الدِّين بإصدار فتوى الخلع، ففي يوم الثُّلاثاء السَّابع والعشرين من شهر نيسان عام ١٩٠٩م اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسةٍ مشتركةٍ قرَّروا بالاتِّفاق خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وكتب مسودَّة الفتوى الشَّيخ نائب حمدي أفندي المالي، لكنَّ أمين الفتوى نوري أفندي الَّذي دعي للاجتماع

(١) انظر: المصدر السَّابق، ص ٢٨٣.

(٢) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ٥٠.

رفض هذه المسودَّة، وهدَّد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديلٌ عليها، وأيَّده في التَّعديل عددٌ من أنصاره من النُّوَّاب، فعدَّل القسم الأخير على أن يقرِّر مجلس «المبعوثان» عرض التَّنازل عن العرش، أو خلعه.

وإليكم نصُّ الفتوى الموقَّع عليها من شيخ الإسلام محمَّد ضياء الدِّين أفندي، ووافق عليها مجلس «المبعوثان» بالإجماع:

(إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طيُّ وإخراج المسائل الشَّرعيَّة المهمَّة من الكتب الشَّرعيَّة، وجمع الكتب المذكورة والتَّبذير، والإسراف من بيت المال، واتِّفاقيَّة خلاف المسوِّغات الشَّرعيَّة، وقتل، وحبس، وتغريب الرَّعيَّة بلا سببٍ شرعيٍّ وسائر المظالم الأخرى، ثمَّ أقسم على الرُّجوع عن غيِّه، ثمَّ عاد، فحنث، وأصرَّ على إحداث فتنةٍ ليخلَّ بها وضع المسلمين كافَّة، فورد من المسلمين من كلِّ الأقطار الإسلاميَّة بالتَّكرار ما يشعر باعتبار زيدٍ هذا مخلوعًا، فلوحظ أنَّ في بقائه ضرراً محقَّقًا، وفي زواله صلاحًا، فهل يجب على أهل الحلِّ، والعقد، وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيدٍ المذكور التَّنازل عن الخلافة، والسَّلطنة، أو خلعه من قبلهم. الجواب: نعم يجب)[١].

قُرئت هذه الفتوى في الاجتماع المشترك للمجلس الملِّي، فصرخ النُّوَّاب الاتِّحاديُّون: نريد خلعه، وبعد مداولاتٍ تمَّت الموافقة على خلع السُّلطان عبد الحميد الثَّاني[٢].

---

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ٤١٠.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

وبتكليفٍ من جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي تمَّ تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين، وسلطان الدَّولة العثمانيَّة عبد الحميد الثَّاني بقرار خلعه، وكانت هذه اللِّجنة تتألَّف من:

١ ـ إيمانويل قراصو: وهو يهوديٌّ إسبانيٌّ، كان من أوائل المشتركين في حركة تركيَّا الفتاة، وكان مسؤولاً أمام جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي عن إثارة الشَّغب، وتحريضه ضدَّ السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، وتأمين التَّخابر بين سلانيك، وإسطنبول فيما يتعلَّق باتِّصالات الحركة. وقراصو هذا محامٍ، عملت جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي بنجاحٍ على تعيينه في المجلس النِّيابيِّ العثماني نائبًا عن سلانيك مرَّةً، وعن إسطنبول مرَّتين. وصفته المصادر الإنجليزيَّة بأنَّه من قادة الاتِّحاد والتَّرقِّي. عمل أثناء الحرب مفتِّشًا للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب أن يجمع أموالاً كثيرةً لحسابه الخاصِّ، ولعب دوراً هامًّا في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا. واضطرَّ نتيجةً لخيانته للدَّولة أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حقِّ المواطنة الإيطاليَّة، واستقرَّ في تريسنا حيث مات عام ١٩٣٤م. وكان أثناء وجوده في الدَّولة العثمانيَّة الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا يزولتا الماسوني.

٢ ـ آرام: وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

٣ـ أسعد طوبطاني: وهو ألباني، نائب في مجلس المبعوثان عن منطقة دراج.

٤ ـ عارف حكمت: وهو فريق بحري عضو مجلس الأعيان، وهو كرجي العراق[١].

---

(١) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ٥١.

يروي السُّلطان عبد الحميد في مذكِّراته تفاصيل هذه الحادثة، فيقول: (إِنَّ ما يحزنني ليس الإِبعاد عن السُّلطة، ولكنَّها المعاملة غير المحترمة الَّتي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه، والَّتي خرجت عن كلِّ حدود الأدب، حيث قلت لهم: إِنَّني أنحني للشَّرعيَّة، ولقرار مجلس المبعوثان، وذلك تقدير العزيز العليم، سوى أنِّي أؤكِّد بأنَّه لم يكن لي أدنى علاقةٍ لا من بعيدٍ، ولا من قريبٍ بالأحداث الَّتي تفجَّرت في ٣١ مارت)، ثمَّ أردف قائلاً: (إِنَّ المسؤوليَّة الَّتي تحملتموها ثقيلةٌ جدًّا). ثمَّ أشار عبد الحميد إِلى قراصو قائلاً: (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة[١]؟ وبأيِّ قصدٍ جئتم بهذا الرَّجل أمامي؟)[٢].

لقد اعتبر اليهود، والماسونيُّون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به، وساروا بمظاهرةٍ كبيرةٍ في مدينة سلانيك، ولم يكتفِ الماسونيُّون بذلك، بل طبعوا صورة هذه المظاهرات في بطاقاتٍ بريديَّةٍ، لتباع في أسواق تركيَّا العثمانيَّة، ولمدَّة طويلةٍ. لقد كان الاتِّحاديُّون يفتخرون دائمًا بأنَّهم ماسونيُّون. وقد أدلى رفيق مانياسي زادة بتصريحاتٍ إِلى صحيفة تمبس الفرنسيَّة في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي، حيث جاء فيها: (... لقد كانت للمساعدات الماليَّة، والمعنويَّة الَّتي تلقَّيناها من الجمعيَّة الماسونيَّة الإِيطاليَّة الَّتي أمدَّتنا بالعون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[٣].

(١) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ٢١٩.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٢٠.
(٣) المصدر السَّابق، ص ٢٢١.

إنَّ هذه العلاقة بين الصَّهيونيَّة، والماسونيَّة وضَّحها السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في الرِّسالة الَّتي وجَّهها إلى الشَّيخ محمود أبي الشَّامات شيخه في الطَّريقة الشَّاذليَّة بعد خلعه، وذلك في سنة ١٣٢٩هـ[١] وقد جاء في هذه الرِّسالة:

(إنَّ هؤلاء الاتِّحاديِّين قد أصرُّوا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطنٍ قوميٍّ لليهود في الأرض المقدَّسة «فلسطين» ورغم إصرارهم، لم أقبل بصورةٍ قطعيَّةٍ هذا التَّكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائةٍ وخمسين مليون ليرة إنكليزيَّة ذهبًا، فرفضتُ هذا التَّكليف بصورةٍ قطعيَّةٍ أيضًا، وأجبتُهم بهذا الجواب القطعي: «إنَّكم لو دفعتم ملء الدُّنيا ذهبًا، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجهٍ قطعيٍّ، لقد خدمت الملَّة الإسلاميَّة، والأمَّة المحمَّديَّة ما يزيد على ثلاثين سنة فلن أسوِّد صحائف المسلمين». وبعد جوابي هذا اتَّفقوا على خلعي، وأبلغوني: أنَّهم سيبعدونني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التَّكليف الأخير. هذا وحمدت المولى، وأحمده أنَّني لم أقبل بأن ألطِّخ العالم الإسلامي بهذا العار الأبدي النَّاشئ عن تكليفهم بإقامة دولةٍ يهوديَّةٍ في الأراضي المقدَّسة فلسطين)[٢].

وفي مقالٍ نشر في جريدة (بويوك ضوغو) التُّركيَّة في ٢ مايو عام ١٩٤٧م العدد ٦١ يقول (محرم فوزي طوغاي) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهوديَّة) الآتي:

(منع السُّلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولةٍ يهوديَّةٍ في فلسطين، وكلَّف هذا المنع السُّلطان عبد الحميد غاليًا، وأودى بعرشه، وأدَّى هذا فيما

---

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٢٣.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

بعد إلى انهيار الدَّولة العثمانيَّة كلِّها). رغم: أنَّه كان يدرك ـ كما قال نظام الدِّين لبه دنلي أوغلو ـ في دراسته عن دور اليهود في هدم الدَّولة العثمانيَّة: أنَّ (اليهود يمتلكون قوىً كثيرةً تستطيع النَّجاح في العمل المنظَّم، فالمال كان عندهم، والعلاقات التِّجاريَّة الدَّوليَّة كانت في أيديهم، كما كانوا يمتلكون الصَّحافة الأوربيَّة، والمحافل الماسونيَّة)[١].

إنَّ بعض أقطاب حركة الاتِّحاد والتَّرقِّي اكتشفوا فيما بعد: أنَّهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونيَّة، والصَّهيونيَّة، فهذا أنور باشا الَّذي لعب دوراً مهمّاً في انقلاب عام ١٩٠٨م، يقول في حديثٍ له مع جمال باشا أحد أركان جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟) وبعد تحسُّرٍ عميقٍ قال: (نحن لم نعرف السُّلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلةً بيد الصَّهيونيَّة، واستثمرتنا الماسونيَّة العالميَّة، نحن بذلنا جهودنا للصَّهيونيَّة، فهذا ذنبنا الحقيقي)[٢].

وفي هذا المعنى، يقول أيُّوب صبري قائد الاتِّحاديِّين العسكريِّين: (لقد وقعنا في شَرَك اليهود، عندما نفَّذنا رغبات اليهود عن طريق الماسونيِّين لقاء صفيحتين من اللِّيرات الذَّهبيَّة، في الوقت الَّذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرةً ذهبيَّةً على السُّلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا إنَّه لم يقبل بذلك)[٣].

ويقول في هذا الصَّدد برنارد لويس: (لقد تعاون الأخوة الماسونيُّون، واليهود بصورةٍ سرِّيَّةٍ على إزالة السُّلطان عبد الحميد؛ لأنَّه كان معارضاً قويّاً لليهود؛ إذ رفض بشدَّةٍ إعطاء أيِّ شبر أرضٍ لليهود في فلسطين)[٤].

---

(١) انظر: السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، ص ٨٨.

(٢) انظر: اليهود والدَّولة العثمانيَّة، ص ٢٢٨.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٢٢٩.

(٤) المصدر السَّابق نفسه.

وقد علَّق نجم الدِّين أربكان المجاهد الكبير زعيم حزب الرَّفاه في تركيَّا على هذا الموضوع قائلاً: (إنَّ الحركة الماسونيَّة سعت سعياً شديداً لعزل السُّلطان عبد الحميد، ونجحت في سعيها، وإنَّ أوَّل محفلٍ فتح في تركيَّا العثمانيَّة كان على يد أميل قره صو، وهو صهيونيٌّ، وقد انضمَّ إليه ضبَّاط منطقة سالونيكا..)[١].

بعد إبعاد عبد الحميد الثَّاني من السُّلطة، عبرت الصُّحف اليهوديَّة في سلانيك عن غبطتها في الخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصُّحف. وفي هذا الصَّدد يقول لوثر: (وبعد إبعاد عبد الحميد من السُّلطة، عبَّرت الصُّحف اليهوديَّة في سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزفُّ البشائر بالخلاص من «مضطهد إسرائيل» الَّذي رفض استجابة طلب هرتزل لمرَّتين، والَّذي وضع جواز السَّفر الأحمر الَّذي يقابل عندنا قانون الأجانب)[٢].

واستمرَّت الحملات الإعلاميَّة المنظَّمة تشهر تشهيراً عنيفاً بالسُّلطان عبد الحميد الثَّاني.

استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات:

١ ـ الدِّفاع عن أعضاء الاتِّحاد والتَّرقِّي، مبرِّرين تصرُّفهم في إنهاء حكم السُّلطان عبد الحميد كي تستردَّ الدَّولة مكانتها.

٢ ـ تغطية فشل الاتِّحاد والتَّرقِّي في حكم الدَّولة، فقد لجأ رجال الاتِّحاد والتَّرقِّي إلى القوَّة والاستبداد، وأثاروا الفرقة بين سكَّان البلاد.

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٣٠.

٣ ـ إبـراز صـورةٍ مشرقةٍ لعهد الطَّاغية الملحد مصطفى كمال أتاتورك، وأعوانه، وتبرير تصرُّفات عملاء اليهود، والإنجليز، والدُّول الغربيَّة في إلغاء الخلافة والسَّلطنة، وإعلان الجمهوريَّة التُّركيَّة.

٤ ـ رغبة الصَّهاينة في تدمير سيرة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني انتقامـاً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين[١].

وحقيقـة الأمر أنَّه لولا أصالـة الدَّولة العثمانيَّة، وعراقتها، وشموخها؛ لأصبحت هباء منبثّـاً، وطويت صفحاتها في القرن الثَّامن عشر، أو القرن التَّاسع عشر، ولكنَّها ظلَّت تقاوم عوادي الزَّمن أكثر من قرنين نتيجةً للزَّحف الاستعماري، والكيد اليهودي، والنَّخر الماسوني، والضَّعف الشَّديد الَّذي انتاب الدَّولة، وهو ضعفٌ لم يكن السُّلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه، وغدت ممتلكات الدَّولة نهبـاً بين الدُّول الأوربيَّة الاستعماريَّة، الَّتي كانت تخطِّط منذ زمنٍ بعيدٍ للقضاء على الدَّولة[٢].

(١) انظر: الدَّولة العثمانيَّة، د. الشِّنَّاوي (٢/ ١٠١٨ ـ ١٠٢٣).

(٢) المصدر السَّابق (٢/ ١٠٦١).

المبحث السادس

حكم الاتِّحاديِّين ونهاية الدَّولة العثمانيَّة

تولَّى السَّلطنة، والخلافة بعد السُّلطان عبد الحميد الثَّاني أخوه محمَّد رشاد، إلا أنَّه في الحقيقة لا يملك أيَّ سلطةٍ فعليَّةٍ، وإنَّما السُّلطة أصبحت بيد جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي، وغدت الحكومة العثمانيَّة تركيَّة في مضمونها، قوميَّة في عصبيَّتها، بينما كانت مِنْ قَبْلُ عثمانيَّةً في مضمونها، وإسلاميَّةً في رابطتها. فقد تأثَّرت هذه الجمعيَّة بقوَّة الأفكار القوميَّة الطُّورانيَّة الَّتي تدعو إلى تحرير كلِّ الأتراك، مدَّعين: أنَّ الشُّعوب الإسلاميَّة في الأناضول، وآسيا الوسطى تشكِّل أمَّة واحدةً، وفي الأفكار الَّتي تطوَّرت أخيراً بمجهودات بعض كتَّاب الجمعيَّة، وعلى رأسها موئيز كوهين اليهوديُّ، والكاتب التُّركيُّ الشَّهير ضيا كوك آلب؛ فاتَّبعت سياسة التَّتريك، وذلك بجعل اللُّغة التُّركيَّة هي اللُّغة الرَّسميَّة الوحيدة، وإن كانت تقف اللُّغة العربيَّة إلى جانبها. فتأجَّجت حركة الدَّعوة إلى القوميَّة العربيَّة في مواجهة حركة التَّتريك.

كوَّن العرب حزب اللامركزيَّة، وتعني أن تأخذ الولايات غير التُّركيَّة استقلالاً ذاتيًّا، وتبقى خاضعةً خارجيًّا لإسطنبول، كما كوَّنوا جمعيَّاتٍ سرِّيَّةً مثل الجمعيَّة القحطانيَّة برئاسة عبد الكريم الخليل، والضَّابط عزيز علي المصري، والجمعيَّة العربيَّة الفتاة الَّتي تشكَّلت في باريس عام ١٣٢٩هـ على منهج جمعيَّة تركيَّا الفتاة، ومن قبل طلاب يدرسون هناك، تشبَّعوا بالأفكار الغربيَّة وخاصَّةً مبادئ العصبيَّة القوميَّة، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونيَّة، وكان قصدهم:

استقلال العرب التَّامّ، وقد نقلوا مقرَّهم من باريس إلى بيروت، ثمَّ إلى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء، وخاصَّةً من النَّصارى العرب.

وتكوَّنت الجمعيَّة الإصلاحيَّة في بيروت عام ١٣٣١هـ وتعاونت مع جمعيَّة النَّهضة اللُّبنانيَّة في المهجر، فقدَّمتا رسالةً مشتركةً إلى حكومة فرنسا عام ١٣٣١هـ التمستا فيها منها احتلال سورية، ولبنان، بينما اتَّجه بعض مثقَّفي العراق نحو الإنجليز، وأيَّد لبعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح، بل وحتَّى إلى بسط الحماية البريطانيَّة على البلاد[١].

ولمَّا بطش الاتِّحاديُّون بأعضاء الجمعيَّات العربيَّة، قامت العربيَّة الفتاة بعقد مؤتمرٍ عربيٍّ في باريس سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٣م، وقد هيَّأ الفرنسيُّون المكان المناسب لعقد الاجتماع، وقرَّر المؤتمرون:

١ ـ ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.

٢ ـ إشراك العرب بالإدارة المركزيَّة.

٣ ـ جعل اللُّغة العربيَّة لغةً رسميَّةً في كلِّ الولايات العربيَّة.

٤ ـ جعل الخدمة العسكريَّة محلِّيَّةً بالنِّسبة للعرب إلا حين الضَّرورة.

٥ ـ التَّعاطف مع مطالب الأرمن.

وأكَّد الأعضاء بأنَّ حركتهم لا دينيَّة، وتعادل عدد النَّصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر، وكان برئاسة عبد الحميد الزَّهراوي[٢].

---

(١) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، د. علي حسُّون، ص ٢٤٩.

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي. د. جميل المصري (١/ ١٠٩).

وقد علَّقت فرنسا آمالاً كبيرةً على المؤتمر، وكان لها العديد من الأنصار في داخله، ثمَّ قامت بنشر مقرَّراته.

ولمَّا قامت الحرب العالميَّة الأولى (١٣٣٣ - ١٣٣٧هـ- ١٩١٤ - ١٩١٨م) دخلت تركيَّا الحرب إلى جانب دول الوسط «ألمانيا، والنِّمسا» في حين تمكَّن الإنجليز «بمراسلات الحسين مكماهون» من جرِّ العرب إلى جانب الحلفاء «بريطانيا، وفرنسا، وروسيا» فسادت فكرة القوميَّة العربيَّة، ووقع الصِّدام بين العرب والتُّرك[1].

وسقطت تركيَّا بعد هزيمتها في الحرب، واحتلَّ الحلفاء، واليونان أجزاءً منها، ووقعت الآستانة تحت سيطرة الإنجليز، وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إنَّ خلع السُّلطان عبد الحميد، وقيام جمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي في الحكم كانت خطوةً أساسيَّةً نحو تحقيق المخطَّط الَّذي تمَّ أثناء الحرب، وبعد الحرب في مراحل نلخِّصها فيما يلي:

١ ـ اتِّفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدَّولة العثمانيَّة بين الحلفاء، تجلَّى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ-١٩١٦م السِّرِّيَّة في الوقت الَّذي وُعِدَ فيه العرب بالاستقلال. وأهمُّ ما تضمَّنته هذه المعاهدة:

• أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سورية الشَّمالي (لبنان، والسَّاحل الشَّمالي من سورية) لفرنسا.

---

(١) المصدر السَّابق (١/ ١١٠).

• تتكوَّن دولتان عربيَّتان شمال العراق، وأواسط بلاد الشَّام، وجنوبها، يكون النُّفوذ في الأولى الَّتي تشمل شمال العراق، وشرق الأردن لبريطانيا، والنُّفوذ في الثَّانية الَّتي تشكِّل أواسط سورية، والجزيرة الفراتيَّة لفرنسا.

• تكون فلسطين دوليَّةً.

• تكون الآستانة والمضائق (البسفور، والدَّردنيل) لروسيا[١].

٢ ـ وعد بلفور الَّذي أصدرته بريطانيا للصَّهيونيَّة في ٢/ ١١/ ١٩١٧م (محرَّم ١٣٢٦هـ) بأن تكون فلسطين وطنـًا قوميّـًا لليهود.

٣ ـ تسليم تركيَّا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلاميَّة بنقلها من دولةٍ ذات طابعٍ إسلاميٍّ إلى دولةٍ غربيَّة الطَّابع، فيمكن القول بأنَّ الفترة الَّتي بدأت في تركيَّا بخلع السُّلطان عبد الحميد، وتولِّي الاتِّحاديِّين للحكم هي الفترة الَّتي اجتمعت فيها إرادة الحاكمين والاستعمار على تصفية الدَّولة العثمانيَّة، وإبراز طابع الجامعة الطُّورانيَّة، وإبلاغ العلاقة بين التُّرك والعرب أشدَّ مراحلها عنفـًا وقسوةً ممَّا مهَّد إلى زوال الدَّولة، والتهام الغرب للأجزاء العربيَّة، ومنح اليهود وعد بلفور الَّذي يعطيهم الحقَّ في إقامة دولة فلسطين[٢].

فقد قام الاتِّحاديُّون بتوجيه الدَّولة وجهةً قوميَّةً لا دينيَّةً، ولمَّا احتلَّ الإنجليز إسطنبول (الآستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم، وأصبح المندوب السَّامي البريطاني، والجنرال هازنجتون (القائد العامُّ لقوَّات الحلفاء في

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

إسطنبول) هما أصحاب السِّيادة الفعليَّة[١]، وكانت اللُّعبة العالميَّة للقضاء على الخلافة العثمانيَّة نهائيًّا تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرَّارة، وتعلِّق المِلَّة الإسلاميَّة اليائسة فيه أملها الكبير، وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرَّمق الباقي في جسم الأمَّة فينهشه، ويجهز عليها، وهذا أفضل قطعًا من كلِّ الـ «مئة مشروع لتقسيم تركيَّا» وهدم الإسلام[٢].

وتمَّت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنجليزيَّة بنجاحٍ باهرٍ، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدَّولة من الحلفاء، واليونان الَّذين احتلُّوا إزمير بتمكينٍ من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ وتوغَّلوا في حقدٍ صليبيٍّ دفينٍ في الأناضول، فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك، ورفع القرآن، وردَّ اليونانيِّين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوَّات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته، وأخلت أمامه المواقع، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السَّطح تدريجيًّا، فقد ابتهج العالم الإسلامي، وأطلق عليه لقب الغازي، ومدحه الشُّعراء، وأشاد به الخطباء.

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أوَّل بيتٍ من قصيدةٍ مشهورةٍ[٣]:

الله أَكْبَرُ كَمْ فِي الْفَتْحِ مِنْ عَجَبِ يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ الْعَرَبِ

(١) المصدر السَّابق (١/ ١١١).

(٢) انظر: العلمانيَّة. د. سفر الحوالي، ص ٥٦٩.

(٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١١).

ثُمَّ يجعله في مصافِّ صلاح الدِّين الأيُّوبيِّ حين يقول:

حَذَوْتَ حَرْبَ الصَّلاحِيِّينَ في زَمنٍ فِيهِ القِتَالُ بِلا شَرْعٍ وَلا أَدَبِ

وشبَّه انتصاره بانتصار بدرٍ، فيقول:

يَوْمٌ كَبَدْرٍ فَخَيْلُ الْحَقِّ رَاقِصَةٌ عَلَى الصَّعِيدِ وَخَيْلُ اللهِ فِي السُّحُبِ

تَهْيِئَةٌ أَيُّهَا الغَازِي وَتَهْنِئَةٌ بِآيَةِ الْفَتْحِ تَبْقَى آيَةُ الحُقُبِ[1]

فكان النَّاس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفَّر باستسلام الخليفة وحيد الدِّين محمَّد السَّادس القابع في الآستانة مستكينًا لما يجري عليه من الذُّلِّ؛ كبر في نظرهم الأوَّل بمقدار ما يهون الثَّاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصُّحف بإهدار دم مصطفى كمال، واعتباره عاصيًا متمرِّداً، ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحًا، يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة؛ الَّذي خيِّل إليهم: أنَّ الخليفة يمرِّغه في التُّراب تحت أقدام الجيوش المحتلَّة.

ولكنَّه لم يلبث غير قليلٍ حتَّى ظهر على حقيقته صنيعةً لأعداء الإسلام من اليهود، والنَّصارى، وخاصَّةً إنجلترا الَّتي رأت: أنَّ إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهيِّن، وأنَّ ذلك لا يمكن أن يتمَّ إلا باصطناع بطلٍ، وإعطائه صورةً عظيمةً، وإظهار هالةٍ حوله، وتصويره، وكأنَّ الكرامات تجري على يديه، وعندها يمكن توجيه الطَّعنة على يديه بلا ألمٍ عميقٍ؛ إذ الشُّعور قد تَخدَّر من نشوة الانتصارات الزَّائفة، فالحلفاء أنفسهم هم الَّذين اصطنعوا القلاقل، وطلبوا من السُّلطان

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١١).

إخمادها، واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمَّة ليصبح محطَّ آمال النَّاس وموضع تقدير ضبَّاط الجيش، فتتصاعد مكانته، وهيبته، وتتدهور سمعة الخليفة، وينحطُّ مركز الخلافة في أعين النَّاس، فالألاعيب الإنجليزيَّة لا تُدرك بسهولةٍ[١].

لقد استطاعت المخابرات الإنجليزيَّة أن تجد ضالَّتها المنشودة في شخصيَّة مصطفى كمال، وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنجليزيَّة ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الإنجليزي «أرمسترونج» الَّذي تعزَّزت علاقته به في فلسطين، وسورية، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني.

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحةٍ على بداية العقد النَّفسيَّة عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزَّواج الثَّاني لوالدته من أحد الروديسيِّين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها، ولجوئه إلى أصحابه من الرُّهبان المقدونيِّين الَّذين تلقَّفوه فلقَّنوه مبادئ اللُّغة الفرنسيَّة مع صديقه المقدوني «فتحي» فالتهما كتب فولتير، وروسُّو، ومؤلَّفات هوبز، وجون ستيورات ميل، وغيرها من الكتب الممنوعة، حتَّى أصبح ينظم الشِّعر الملتهب بمشاعر القوميَّة، ويخطب في مَلَئه بالكلِّيَّة العسكريَّة، فيحدِّثهم عن فساد السُّلطان قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ثمَّ انتقل إلى إسطنبول، وانغمس في ملاهيها، وحاناتها، وراح يشرب، ويقامر، ويغازل قبل أن يسجن لانضمامه إلى «جمعيَّة وطن»[٢].

---

(١) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، ص ٢٧٧.

(٢) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦.

ويشهد أرمسترونج بعلاقة الاتِّحاد والتَّرقِّي بالدُّونمة والماسونيَّة في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال، فيذكر كيف «دعي لحضور أحد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسيَّة الإيطاليَّة، والجمعيَّات الماسونيَّة الإيطاليَّة؛ إذ إنَّ جنسيَّتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات، والامتيازات الأجنبيَّة، وقد دأب الاتِّحاديُّون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كلِّ خطرٍ، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم قد انضمَّ إلى جماعة الماسون (البنَّائين الأحرار) ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيَّتهم الثَّوريَّة وتنظيمها باقتباس أساليب المنظَّمات الماسونيَّة، وصاروا يتلقَّون الإعانات الماليَّة الوافرة من مختلف الجهات، ويتَّصلون باللاجئين السِّياسيِّين الَّذين نفاهم السُّلطان إلى خارج البلاد.

ويكشف أرمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون بقيَّة أقرانه، لتنفيذ آخر خطوةٍ في الخطَّة البريطانيَّة، فيقول: «إنَّ طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر النَّاهي، فلم يُظْهِر أيَّ احترامٍ لزعماء الاتِّحاديِّين، وتشاجر مع: أنور، وجمال، وجاويد اليهوديِّ الأصل، ونيازي الألمانيِّ المتوحِّش، وطلعت الدُّبِّ الكبير الَّذي كان موظَّفًا صغيراً في مصلحة البريد».

وبعد أن تحوَّل مصطفى كمال من مجرَّد ضابطٍ غير ثائرٍ على الأوضاع إلى قائدٍ عسكريٍّ يملك رصيداً من الأمجاد، والانتصارات لقِّب بـ «الغازي» بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانيَّة، ويذكر أرمسترونج صفحةً جديدةً من حياته الخاصَّة بعد كشفه عن مجونه، وفسقه، وأهليَّته لنسف الخلافة الإسلاميَّة، فيتطرَّق إلى زواجه الأسطوري من «لطيفة» تلك الفتاة الأميريَّة الموسرة الَّتي

عادت لتوِّها من باريس لتقدِّم خبراتها الإداريَّة، وثقافتها العصريَّة، وإجادتها لعدَّة لغاتٍ فضلاً عن أنوثتها، وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في إزمير إلى الغازي مصطفى كمال الَّذي أوقعته في حبائلها بتمنُّعها، ودلالها فتخلَّص من «فكريَّة» الَّتي أرسلها إلى ميونخ للعلاج من المرض الَّذي نقله إليها، ثمَّ دبَّر أمر انتحارها، كما تخلَّص من «صالحة» ليقوم بزواجٍ خاطفٍ من «لطيفة» بعد أن أفسد حياة «سعادت» وعشرات البنات، والنِّساء، والغلمان، وغيرها، كما تؤكِّد ذلك الوثائق الَّتي تركها أحد زملائه من الضُّبَّاط المتقاعدين[1].

وقد كانت «لطيفة» نفسها ضحيَّةً من ضحاياه فيما بعد، حيث طلَّقها بقرارٍ وزاريٍّ، وتركها فريسةً للأمراض، والأوجاع بعد تحذيرها للصَّمت عن كلِّ شذوذه، ولم تبقَ بجانبه إلا «عفَّت» تلك الفنَّانة الَّتي كانت له معلِّمةً، ومؤرِّخةً حتَّى استطاعت أن تقود ذلك الوحش ـ على حدِّ تعبيره ـ بأسلوب الخضوع، والعبوديَّة له.

ولكنَّ «لطيفة» هانم أشاكي كيل لم يمنعها قانون حماية مصطفى كمال من أيِّ هجومٍ، أو نقدٍ من التَّلميح بين سطور مذكِّراتها الَّتي نشرتها صحيفة «الحرِّيَّة» التُّركيَّة في حزيران «يونيو» عام ١٩٧٣م من تسليط بعض الأضواء على حياة أتاتورك الخاصَّة، وإفراطه في الشُّرب، محاولةً إلقاء المسؤوليَّة على أصحابه وزملائه أمثال: «قلج علي» و «نوري جنكر» و «رجب هدى» الَّذين كانوا يتعمَّدون إهدار وقته، وهم مجموعةٌ من القتلة، والأشقياء المعروفين الَّذين

(١) انظر: صحوة الرَّجل المريض، ص ٢٦٧.

ضمَّهم إِلى حاشيته، ولحراسته، وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه إِلى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمَّات الإِجراميَّة الَّتي كلَّفهم بها للتَّخلُّص من بعض خصومه[١].

إِنَّ تلك الأخلاق العفنة الَّتي اشتهر بها مصطفى كمال لا تستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أنَّ أصله من يهود الدُّونمة.

فقد جاء في دائرة المعارف اليهوديَّة: «لقد أكَّد الكثير من يهود سلانيك: أنَّ كمال أتاتورك كان أصله من الدُّونمة، وهذا هو أيضاً رأي الإِسلاميِّين المعارضين لكمال أتاتورك، ولكنَّ الحكومة تنكر ذلك»[٢].

ويعلِّق توينبي على نسب مصطفى كمال قائلاً: «إِنَّ دماً يهوديّاً يجري في عروق الأسرة الكماليَّة. فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيَّام محنتهم، وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الإِسلام، ولكنَّ طبائع مصطفى كمال، ولون عينه، وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثِّراً بدماءٍ يهوديَّةٍ»[٣].

ويقول أسامة عيناي: «إِنَّ الدُّونمة يعتزُّون كثيراً بأتاتورك، ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنَّه منهم، وحجَّتهم في ذلك؛ أنَّ أتاتورك أسفر عن نيَّاته ضدَّ الإِسلام حين تولَّى الحكم»[٤].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) انظر: يهود الدُّونمة، د. النُّعيمي، ص ٨٧ ـ ٨٩.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٩٠.

(٤) المصدر السَّابق، ص ٩٤.

إنَّ أفعال مصطفى كمال دلَّت على بغضه للإسلام فيما بعد، فبينما كان في عام ١٣٣٧هـ عندما انتصر على اليونان في أنقرة يعلن أمام الشَّعب: «إنَّ كلَّ التَّدابير الَّتي ستتَّخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسَّلطنة، والخلافة، وتحرير السُّلطان، والبلاد من الرِّقِّ الأجنبيِّ»[١]؛ نجده بعد أن تمكَّن من العباد، والبلاد في عام ١٣٤١هـ - ١٩٢٣م تعلن الجمعيَّة الوطنيَّة التُّركيَّة بزعامته عن قيام الجمهوريَّة التُّركيَّة، وانتخب مصطفى كمال أوَّل رئيسٍ لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقَّتًا بالخلافة فاختير عبد المجيد بن السُّلطان عبد العزيز بدلاً من محمَّد السَّادس الَّذي غادر البلاد على بارجةٍ بريطانيَّةٍ إلى مالطة، ولم يمارس السُّلطان عبد المجيد أيَّ سلطاتٍ للحكم[٢].

كان الخليفة عبد المجيد رجلاً مهذَّبًا مثقَّفًا كما يليق بسلالة بني عثمان، وقد أصبح في نظر الأتراك الصِّلة الحيَّة بالتُّراث والتَّاريخ العثماني الإسلامي، وكانت جماهير إسطنبول تهرع لإلقاء نظرة عليه، وتحيَّته كلَّ جمعةٍ، وهو في طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركًا تمام الإدراك مكانة منصبه السَّامية، وعراقة السُّلالة الَّتي ينتمي إليها، فكان مرَّةً يرتدي عمامة محمَّد الفاتح، وثانيةً يتقلَّد سيف السُّلطان سليمان القانوني.

استشاط مصطفى كمال غيظًا، فما كان ليطيق أن يرى، أو يسمع عن محبَّة النَّاس، وتعلُّقهم بآل عثمان، وبالخلافة، والسَّلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصَّلاة، ثمَّ خفَّض مخصَّصاته للنِّصف، وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنَّار، وضمن تأييد الدُّول العظمى لسياسته التَّعسُّفيَّة.

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٢).

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

دعا مصطفى كمال الجمعيَّة التَّأسيسيَّة إلى اجتماعٍ في ٣ آذار/ مارس ١٩٢٤م، وكان على ثقةٍ تامَّةٍ من أن أحداً في الجمعيَّة التَّأسيسيَّة ـ الَّتي لم يبق منها سوى اسمها ـ لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعيَّة مشروع قرار بإلغاء الخلافة الَّتي أسماها «هذا الورم من القرون الوسطى»[١] وقد أجيز القرار الَّذي شمل نفي الخليفة في اليوم التَّالي دون مناقشةٍ، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة الَّتي كان المسلمون طيلة القرون يستمدُّون من بقائها رمز وحدتهم، واستمرار كيانهم[٢].

لقد كان مصطفى كمال ينفِّذ مخطَّطاً مرسوماً له في المعاهدات الَّتي عقدت مع الدُّول الغربيَّة، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة ١٣٤٠هـ ـ ١٩٢٣م على تركيَّا، فقبلت شروط الصُّلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع «وهو رئيس الوفد الإنجليزي في مؤتمر لوزان» وهي:

١ ـ قطع كلِّ صلةٍ لتركيَّا بالإسلام.

٢ ـ إلغاء الخلافة الإسلاميَّة إلغاءً تامّاً.

٣ ـ إخراج الخليفة، وأنصار الخلافة، والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة.

٤ ـ اتِّخاذ دستورٍ مدنيٍّ بدلاً من دستور تركيَّا القديم[٣].

---

(١) انظر: التَّاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي لمحمَّد أبو غدَّة، ص ١١٠.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) انظر: تاريخ الدَّولة العثمانيَّة، د. علي حسُّون، ص ٢٨٧.

وعمَّ الاستياء الشَّديد على العالم الإسلاميِّ فشوقي الَّذي مدحه سابقًا بكى الخلافة، فقال:

عَـادَتْ أَغانِـي العُـرْسِ رَجْـعَ نُـواحِ ونُعِيـتِ بَيْـنَ مَعَالِـمِ الأَفْـرَاحِ
كُفِّنْـتِ فِـي لَيْـلِ الزَّفـافِ بِثَوْبِـهِ فَنِمْـتِ عِنْـدَ تَبَلُّـجِ الإِصْبـاحِ
ضَجَّـتْ عَلَيْـكِ مَـآذِنٌ وَمَنَابِـر وَبَكَـتْ عَلَيْـكِ مَمَالِـكٌ وَنَـواحِ
الْهِنْـدُ وَالِهَـةٌ، وَمِصْـرُ حَزِينَـةٌ تَبْكِـي عَلَيْـكِ بِمَدْمَـعٍ سَـحَّاحِ
وَالشَّـامُ تَسْـأَلُ، وَالْعِـرَاقُ وَفَـارِسٌ أَمَحَـا مِـنَ الأَرْضِ الخِـلافَةَ مَـاحِ
يَـا للرِّجَـالِ لِحُـرَّةٍ مَـوْءُودَةٍ قُتِلَـتْ بِغَيْـرِ جَرِيـرَةٍ وَجُنَـاح

ثمَّ انبرى شوقي يوجه التَّقريع والنَّقد الشَّديد إلى أتاتورك الَّذي يريد بجرَّة قلمٍ، وبالحديد والنَّار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من آسيا إلى أوربَّة، ومن جذورهم العميقة في الشَّرق إلى الانتظار على أبواب الغرب:

بَكَـتِ الصَّـلاةُ وَتِلْـكَ فِتْنَـةُ عَابِـثٍ بِالشَّـرْعِ عِرْبِيـد القَضَـاءِ وَقَـاحِ
أَفْتَـى خُزَعْبَلَـةً وَقَـالَ ضَلالَـةً وَأَتَـى بِكُفْـرٍ فِـي البِـلادِ بَـوَاحِ
إِنَّ الَّذِيـنَ جَـرَى عَلَيْهِـمُ فِقْهُـهُ خُلِقُـوا لِفِقْـهِ كَتِيبَـةٍ وَسِـلاحِ
نَقَـلَ الشَّـرَائِعَ، والعَقَائِـدَ، والقُـرَى والنَّـاس نَقْـلَ كَتَائِـبَ فـي السَّـاحِ
تَرَكَتْـهُ كَالشَّـبَحِ المُوَلَّـهِ أُمُّـهُ لـم تَسْـلُ بَعْـدُ عِبَـادَةَ الأَشْـبَاحِ

غَرَّتْـهُ طَاعَـاتُ الجُمُـوعِ ودَوْلَـةٌ وَجَـدَ السَّـوادُ لَهـا هَـوَى المُرْتَـاحِ[١]

ولم يترك شوقي أن يبيِّن سبب ظهور هؤلاء المتسلِّطين إلى جهل الشُّعوب، واستسلامها للطُّغاة المستبدِّين، فقال:

مَجْـدُ الأمُـورِ زَوَالُـه فِـي زَلَّـةٍ لا تَـرْجُ لاسْـمِكِ بِالْأُمُـورِ خُلُـودَا
خَلَعَتْـهُ دُونُ المُسْـلِمِينَ عِصَابـةٌ لَـمْ يَجْعَلُـوا لِلْمُسْـلِمِينَ وُجُـودَا
يَقْضُـونَ ذَلِـكَ عَـنْ سَـوَادٍ غَافِـلٍ خُلِـقَ السَّـوادُ مُضَلَّـلاً ومَسُـودَا
إِنِّـي نَظَـرْتُ إِلَـى الشُّـعُوبِ فَلَـمْ أَجِـدْ كالجَهْـلِ دَاءً للشُّـعُوبِ مُبِيـدَا
وَإِذَا سَـبَى الْفَـرْدُ المُسَـلَّطُ مَجْلِسـًا أَلْفَيْـتَ أَحْـرَارَ الرِّجَـالِ عَبِيـدَا[٢]

لقد نفَّذ مصطفى كمال المخطَّط كاملاً، وابتعد عن الخطوط الإسلاميَّة، ودخلت تركيًّا لعمليَّات التَّغريب البشعة؛ فألغيت وزارة الأوقاف سنة ١٣٤٣هـ ـ ١٩٢٤م، وعهد بشؤونها إلى وزارة المعارف، وفي عام ١٣٤٤هـ ـ ١٩٢٥م أغلقت المساجد، وقضت الحكومة في قسوةٍ بالغةٍ على كلِّ تيَّارٍ دينيٍّ، وواجهت كلَّ نقدٍ دينيٍّ لتدبيرها بالعنف، وفي عام (١٣٥٠ - ١٣٥١هـ ـ ١٩٣١ - ١٩٣٢م) حدَّدت عدد المساجد، ولم تسمح بغير مسجدٍ واحدٍ في كلِّ دائرةٍ من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر، وأعلن: أنَّ الرُّوح الإسلاميَّة تعوق التَّقدُّم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجُّمه على المساجد، فخفَّض عدد الواعظين الَّذين تدفع لهم الدَّولة أجورهم إلى ثلاثمئة واعظٍ، وأمرهم أن يفسحوا في

(١) انظر: التَّاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، ص ١١٢.
(٢) انظر: الشَّوقيَّات ديوان أحمد شوقي (١/ ١١٢).

خطبة الجمعة مجالاً واسعـًا للتَّحدُّث عن الشُّؤون الزِّراعيَّة والصِّناعيَّة، وسياسة الدَّولة، وَكَيْل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في إسطنبول، وحوَّل أوَّلهما وهو مسجد آيا صوفيا إلى متحفٍ، وحوَّل ثانيهما، وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

أمَّا الشَّريعة الإسلاميَّة فقد استبدلت، وحلَّ محلَّها قانونٌ مدنيٌّ أخذته حكومة تركيَّا عن القانون السُّويسري عام ١٣٤٥هـ-١٩٢٦م. وغيَّرت التَّقويم الهجريَّ، واستخدمت التَّقويم الجريغوري الغربي، فأصبح عام ١٣٤٢هـ ملغيّـًا في كلِّ أنحاء تركيَّا، وحلَّ محلَّه عام ١٩٢٦م.

ـ وفي دستور عام ١٣٤٧هـ ـ ١٩٢٨م أغفل النَّصُّ على أنَّ تركيَّا دولةٌ إسلاميَّةٌ، وغيَّر نصَّ القَسَمِ الَّذي يقسمه رجال الدَّولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله، كما كان عليه الأمر من قبل.

ـ وفي عام ١٩٣٥م غيَّرت الحكومة العطلة الرَّسميَّة فلم يعد الجمعة، بل أصبحت العطلة الرَّسميَّة للدَّولة يوم الأحد، وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السَّبت وتستمرُّ حتَّى صباح يوم الاثنين.

ـ وأهملت الحكومة التَّعليم الدِّينيَّ كلِّيَّةً في المدارس الخاصَّة، ثمَّ تمَّ إلغاؤه، بل إنَّ كلِّيَّة الشَّريعة في جامعة إسطنبول بدأت تقلِّل من أعداد طلابها، والَّتي أغلقت عام ١٣٥٢هـ-١٩٣٣م.

ـ وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التَّغريب، فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطَّربوش، وأمرت بلبس القبَّعة تشبُّهـًا بالدَّولة الأوربيَّة[1].

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٥).

وفي عام ١٣٤٨هـ ـ ١٩٢٩م بدأت الحكومة تفرض إجباريًّا استخدام الأحرف اللاتينيَّة في كتابة اللُّغة التُّركيَّة بدلاً من الأحرف العربيَّة. وبدأت الصُّحف، والكتب تصدر بالأحرف اللاتينيَّة، وحذفت من الكلِّيَّات التَّعليم باللُّغة العربيَّة، واللُّغة الفارسيَّة، وحرَّم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلَّفات التُّركيَّة، وأمَّا الكتب الَّتي سبق لمطابع إسطنبول أن طبعتها في العهود السالفة؛ فقد صدِّرت إلى مصر، وفارس، والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيًّا ما بين تركيًّا وماضيها الإسلامي من ناحيةٍ، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربيَّة، والإسلاميَّة من ناحيةٍ أخرى[١].

ـ وأخذ أتاتورك ينفخ في الشَّعب التُّركي روح القوميَّة، واستغلَّ ما نادى به بعض المؤرِّخين من أنَّ لغة السُّومريِّين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النَّهرين كانت ذات صلةٍ باللُّغة التُّركيَّة، فقال: بأنَّ الأتراك هم أصحاب أقدم حضارةٍ في العالم؛ ليعوِّضهم عمَّا أفقدهم إيَّاه من قِيَمٍ بعد أن حارب كلَّ نشاطٍ إسلاميٍّ، وخلع مصطفى كمال على نفسه «أتاتورك» ومعناه أبو الأتراك[٢].

ـ وعملت حكومته على الاهتمام بكلِّ ما هو أوربيٌّ، فازدهرت الفنون، وأقيمت التَّماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلِّها، وزاد الاهتمام بالرَّسم، والموسيقا، ووفد إلى تركيًّا عددٌ كبيرٌ من الفنَّانين أغلبهم من فرنسا، والنِّمسا[٣].

---

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) انظر: المسألة الشَّرقيَّة للدُّسوقي، ص ٤٢٨ ـ ٤٣٢.

ـ وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة، وأمرت بالسُّفور، وألغت قوامة الرَّجل على المرأة، وأطلق لها العنان باسم الحرِّيَّة، والمساواة، وشجَّع الحفلات الرَّاقصة، والمسارح المختلطة، والرَّقص.

ـ وفي زواجه من «لطيفة» هانم ابنة أحد أغنياء إزمير الَّذين كانوا على صلةٍ كبيرةٍ مع اليهود من سكَّان إزمير، أجرى مراسم الزَّواج على الطَّريقة الغربيَّة كي يشجِّع على نبذ العادات الإسلاميَّة، واصطحبها، وطاف بها أرجاء البلاد، وهي بادية المفاتن، تختلط مع الرِّجال، وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التَّبرُّج الصَّارخ[١].

ـ وأمر بترجمة القرآن إلى اللُّغة التُّركيَّة، ففقد كلَّ معانيه، ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللُّغة التُّركيَّة[٢].

ـ عمل على تغيير المناهج الدِّراسيَّة، وأعيد كتابة التَّاريخ من أجل إبراز الماضي التُّركي القومي، وجرى تنقية اللُّغة التُّركيَّة من الكلمات العربيَّة، والفارسيَّة، واستُبدلت بكلماتٍ أوربيَّةٍ لاتينيَّةٍ قديمةٍ.

ـ وأعلنت الدَّولة عزمها في التَّوجُّه نحو أوربَّـة، وانفصلت عن العالم الإسلامي، والعربيِّ، وأمعنت حكومتها في استدبار الإسلام حتَّى حاربت بقسوةٍ أيَّ محاولة ترمي إلى إحياء المبادئ الإسلاميَّة[٣].

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٦).

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) انظر: الاتِّجاهات الوطنيَّة لمحمَّد حسين (٢/ ١٠٠).

وكانت خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر، وأفغانستان، وإيران، والهند الإسلاميَّة، وتركستان، وفي كلِّ مكانٍ من العالم الإسلاميِّ؛ إذ أتاحت الفرصة لدُعاة التَّغريب، وخدَّام الثَّقافة الاستعماريَّة أن ينفذوا إلى مكان الصَّدارة، وأن يضربوا المثل بتركيَّا في مجال التَّقدُّم، والنَّهضة المزعومة، فقد هلَّلت له صحف مصر ـ الأهرام، والسِّياسة، والمقطَّم ـ ذات الاتِّجاهات المضادَّة للإسلام، والمدعومة من النُّفوذ الغربيِّ، واليهودي، والماسوني.

لقد برَّرت تلك الصُّحف تصرُّفات كمال أتاتورك، ووافقت عمَّا ابتدعه، ونشرت له أقوال: «ليس لتركيَّا الجديدة علاقةٌ بالدِّين» وأنَّه ـ أي: مصطفى كمال ـ: «ألقى القرآن ذات يومٍ في يده، فقال: إنَّ ارتقاء الشُّعوب لا يصلح أن ينفَّذ بقوانين، وقواعد سُنَّت في العصور الغابرة».

لقد كانت حكومة تركيَّا العلمانيَّة الكماليَّة ـ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة لا دينيَّةً من طراز فرنسا، وإنجلترا فحسب، بل هي دولةٌ مضادَّةٌ للدِّين كالحكومة البلشفيَّة في روسيا، سواءٌ بسواءٍ؛ إذ إنَّه حتَّى اللادينيَّة في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخَّل في حروف الأناجيل، وزيِّ رجال الدِّين، وطقوسهم الخاصَّة، وتلغِ الكنائس[1].

وكان للإعلام اليهوديِّ دورٌ كبيرٌ في التَّرويج لهذه الرِّدَّة مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأيِّ معارضةٍ إسلاميَّةٍ، وكانت تزيِّن له أنَّ ما يقوم به من المذابح الوحشيَّة ضدَّ المسلمين ليست سوى معارك بطوليَّة،

(١) انظر: العلمانيَّة، د. سفر الحوالي، ص ٥٧٣.

كما كانت منبراً لكلِّ دعوات التَّشبُّه بالغرب الصَّليبي، والمناداة بالحرِّيَّة الفاجرة للمرأة التُّركيَّة، والتَّرويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرةً أنَّ شرب الخمر، والمقامرة، والزِّنى ليست إلا مظاهر للتَّمدُّن، والتَّحضُّر[١].

إنَّ الحقيقة المرَّة أنَّ مصطفى كمال أصبح نموذجًا صارخًا للحكَّام في العالم الإسلاميِّ، وكان لأسلوبه الاستبداديِّ الفذِّ أثره في سياسات مَنْ جاء بعده منهم، كما أنَّه أعطى الاستعمار الغربيَّ مبرِّراً كافيًا للقضاء على الإسلام، فإنَّ فرنسا مثلاً برَّرت حرصها على تنصير بلاد الشَّمال الإفريقي، وإخراجها من دينها، وعقيدتها، وإسلامها بأنَّه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم[٢].

لقد أصبح مصطفى كمال زعيمًا روحيًّا لكثيرٍ من الحكَّام الَّذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزَّائلة.

قاد المسلمون ثوراتٍ مسلَّحةً ضدَّ الحكم العلمانيِّ التُّركيِّ المعادي للإسلام، وظهرت أهمُّ الثَّورات في المنطقة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة عام ١٣٤٤هـ، ثمَّ في منيمين عام ١٣٤٩هـ وقد قمعها الكماليُّون بشدَّةٍ منقطعة النَّظير، وذهب ضحيَّتها عددٌ كبيرٌ من العلماء، وأهملت المنطقة اقتصاديًّا وعلميًّا.

وقامت حركة النُّور بزعامة الشَّيخ بديع الزَّمان سعيد النَّورسي، وتلاميذه من بعده، وقد كتب العديد من الرَّسائل الإسلاميَّة تحت عنوان «رسائل النُّور»

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٧).

(٢) انظر: العلمانيَّة، د. سفر الحوالي، ص ٥٧٣.

في سبيل التَّوعية الإسلاميَّة، ومقاومة مبادئ الكماليِّين، والعلمانيَّة، ولم تعمد حركته إلى حمل السِّلاح، واقتصر جهادها على اللِّسان. وقد حاول أتاتورك استمالته، ونفاه، واستنكر دعوته النَّاس إلى الصَّلاة مدَّعيًا: أنَّها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس، فأجابه:

«إنَّ أعظم حقيقةٍ تتجلَّى بعد الإسلام إنَّما هي في الصَّلاة، وإنَّ الَّذي لا يصلِّي خائنٌ، وحكم الخائن مردودٌ»[١]، فسجنه، ثمَّ نفاه بعد أن اتَّهمه بمؤامرةٍ لقلب نظام الحكم، ولكنَّ دعوته استمرَّت في الانتشار سرّاً بين صفوف الجامعيِّين، ومعسكرات الجيش، ودوائر الدَّولة، ومثل للمحاكمة مرَّةً أخرى بتهمة أتاتورك بالدَّجَّال، فوقف أمام المحكمة، وقال:

«إنِّني لأعجب كيف يُتَّهم أناسٌ يتبادلون فيما بينهم تحيَّة القرآن، وبيانه، ومعجزاته باتِّباعهم للسِّياسة والجمعيَّات السِّرِّيَّة، على حين يحقُّ للمارقين الافتراء على القرآن، وحقائقه في وقاحةٍ وإصرارٍ، ثمَّ يعدُّ ذلك أمراً مقدَّساً؛ لأنَّه حرِّيَّة. أمَّا نور القرآن الَّذي يأبى إلا أن يشعَّ في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورةٌ ينهال عليها جميع ألفاظ الشَّرِّ، والخبث، والسِّياسة!

اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم، وتنكَّستم في الكفر المطلق: إنِّني أقول بمنتهى ما أعطاني الله من قوَّةٍ: افعلوا ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمنَّاه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقةٍ من حقائق الإسلام...»[٢].

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي (١/ ١١٧).

(٢) المصدر السَّابق (١/ ١٢٢).

فأعيد إِلى منفاه، وبقي حتَّى عام ١٣٦٧هـ حين بدأت الحكومة تضطرُّ للاستجابة لمطالب الشَّعب المسلم بخصوص النَّشاط الدِّيني[١].

لقد تجلَّت سياسة أتاتورك العلمانيَّة في برنامج حزبه (حزب الشَّعب الجمهوري) لعام ١٣٤٩هـ مرَّة وعام ١٣٥٥هـ مرَّةً ثانيةً، والَّتي نصَّ الدُّستور التُّركيُّ، وهي المبادئ السِّتَّة الَّتي رسمت بشكل ستَّة أسهم على عَلَمِ الحزب، وهي: القوميَّة، الجمهوريَّة، الشَّعبيَّة، العلمانيَّة، الثَّورة، سلطة الدَّولة[٢].

توفِّي أتاتورك عام ١٣٥٦هـ بعد أن حقَّق علمانيَّة تركيَّا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرضٍ عضالٍ في الكلية لم يعرف كنهه، وكان يتعرَّض لآلامٍ مزمنةٍ لا تطاق، وكان السَّبب: إِدمانه شرب الخمر، ممَّا أدَّى إِلى إِصابته بتليُّف الكبد، والتهاب في أعصابه الطَّرفيَّة، وتعرُّضه لحالات من الكآبة، والانطواء ـ وقد تدهور في المستويات العليا للمخِّ ـ لذلك كان هذا الدِّيكتاتور مثلاً فريداً في القسوة، والتَّنكيل، والأنانيَّة المدمِّرة[٣].

(١) المصدر السَّابق نفسه.

(٢) المصدر السَّابق (١/ ١١٦).

(٣) انظر: المسألة الشَّرقيَّة، محمَّد ثابت الشَّاذلي، ص ٢٤٢.

المبحث السابع
أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة

• تمهيد:

إنَّ أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة كثيرةٌ، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الَّذي جلب للأفراد والأمَّة تعاسةً، وضنكًا في الدُّنيا، وإنَّ آثار الابتعاد عن شرع الله لتبدو على الحياة في وجهتها الدِّينيَّة، والاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة.

وإنَّ الفتن تظلُّ تتوالى، وتترى على النَّاس حتَّى تمسَّ جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدَّولة العثمانيَّة عن شرع الله تعالى آثاره على الأمَّة الإسلاميَّة؛ فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادَّة، والجاهليَّة مصابًا بالقلق، والحيرة، والخوف، والجبن، يحسب كلَّ صيحةٍ عليه، يخشى من النَّصارى، ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عزٍّ، وشموخٍ، واستعلاءٍ، وإذا تشجَّع في معركة من المعارك؛ ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنكٍ من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤].

وقد أصيبت الشُّعوب الإسلاميَّة في مراحل الدَّولة العثمانيَّة الأخيرة بالتَّبلُّد، وفقد الإحساس بالذَّات، وضعف ضميرها الرُّوحي، فلا أمرٌ بمعروفٍ، ولا نهيٌ

عن منكرٍ، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، قال تعالى:

﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فإنَّ أيَّ أمَّةٍ لا تعظِّم شرع الله أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كلا والله لَتَأْمُرُنَّ بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخُذُنَّ على يد الظَّالم، ولتأطرُنَّه على الحقِّ أطراً، ولتقصُرُنَّهُ على الحقِّ قصراً، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم بعضاً، ثمَّ لَيَلْعَنَنَّكم كما لعنهم!»[1].

لقد تحقَّقت في الدَّولة العثمانيَّة سنَّة الله في تغيير النُّفوس من الطَّاعة، والانقياد إلى المخالفة، والتمرُّد على أحكام الله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أنَّ الشُّعوب الَّتي تخضع للحكَّام الَّذين تباعدوا عن شرع الله تذلُّ، وتهان حتَّى تقوم أمام من خالف أمر الله تطلب العون على إخوانهم في العقيدة. إنَّ انحراف سلاطين الدَّولة العثمانيَّة المتأخِّرين عن شرع الله، وتفريط الشُّعوب الإسلاميَّة الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أثَّر في تلك الشُّعوب، وكثرت الاعتداءات الدَّاخليَّة بين النَّاس، وتعرَّضت النُّفوس للهلاك، والأموال للنَّهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطُّل أحكام الله فيما بينهم،

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف، رقم الحديث (٤٦٧٠).

ونشبت حروبٌ، وفتنٌ، وبلايا تولَّدت على أثرها عداوةٌ، وبغضاء لم تزل عنهم حتَّى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الرُّوس، والإنجليز، والبلغار، والصِّرب، وغيرهم تقوى، وتحصَّلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن السَّلاطين، والأمَّة العثمانيَّة، وحُرموا التَّمكين، وأصبحوا في خوفٍ، وفزعٍ من أعدائهم، وتوالت المصائب، وضاعت الدِّيار، وتسلَّط الكفَّار.

إنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق الدِّين، والتَّاريخ أنَّه إذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه سلَّط الله عليهم مَنْ لا يعرفونه؛ ولذلك سلَّط الله النَّصارى على المسلمين في الدَّولة العثمانيَّة.

إنَّ الذُّنوب الَّتي يهلك الله بها الدَّولة، ويعذِّب بها الأمم قسمان:

١ ـ معاندة الرُّسل، والكفر بما جاؤوا به.

٢ ـ كفر النِّعم بالبطر، والأشر، وغمط الحقِّ، واحتقار النَّاس، وظلم الضُّعفاء، ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق، والفجور، والغرور بالغنى والثَّروة، فهذا كلُّه من الكفر بنعمة الله، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع النَّاس، والعدل العامِّ.

والنَّوع الثَّاني من الذُّنوب هو الَّذي مارسه أواخر سلاطين الدَّولة العثمانيَّة، وأمراؤهم[1].

إنَّ الدَّولة العثمانيَّة في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ، ملتزمةً بمنهج أهل السُّنَّة في مسيرتها الدَّعويَّة، والجهاديَّة، آخذةً بشروط

(١) انظر: دولة الموحِّدين لعلي محمَّد الصَّلابي، ص ١٧٠.

التَّمكين، وأسبابه كما جاءت في القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة الشَّريفة. أمَّا في أواخر عهدها، فقد انحرفت عن شروط التَّمكين، وابتعدت عن أسبابه المادِّيَّة والمعنويَّة، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥، ٥٦].

فكانت الدَّولة الإسلاميَّة العثمانيَّة في بداية أمرها مستوعبةً لتلك الشُّروط، أمَّا في أواخر عهدها؛ فقد أصاب تلك الشُّروط انحرافٌ عن مفاهيمها الأصليَّة، فمثلاً:

أوَّلاً: من لوازم الإيمان الصَّحيح الولاء والبراء:

فكانت الدَّولة في عصورها المتقدِّمة عاملةً بقول الله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ويقول رسول الله ﷺ: «أوثق عُرَى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحبُّ في الله، والبغض في الله»[(١)].

(١) صحيح الجامع الصَّغير (٢/ ٣٤٣) رقم (٢٥٣٦).

أمَّا في عصورها المتأخِّرة وخصوصاً في القرنين الثَّالث عشر، والرَّابع عشر الهجريَّين؛ فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف نتيجةً للجهل الذَّريع؛ الَّذي خيَّم على أغلب أقاليم الدَّولة العثمانيَّة، والبلدان الإسلاميَّة، ولغياب العلماء الرَّبَّانيِّين الَّذين ينيرون للأمَّة دروبها، ويأخذون بزمامها إلى الطَّريق المستقيم. وكان الحكَّام، والسَّلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين، ويتولَّونهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانبٍ عظيمٍ من القوَّة المادِّيَّة، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضَّعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الَّذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة[1].

فالواقع المليء بكلِّ صور الانحطاط من فقرٍ، وضعفٍ، وجهل، ومرضٍ، وخرافةٍ في مقابل الواقع الأوربي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرِّر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً، وعقيدتهم راسخةً؛ لم تجرفهم أهواء الكافرين، ولم تتقاذفهم أمواج المادَّة والقوَّة، كما كان حال الجيل الأوَّل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الَّذي استعلى بدينه، وعقيدته على قوَّة الكافرين، وجبروتهم حتَّى في وقت الهزيمة، ولحظة الفشل، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ومع هذا فإنَّ هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمَّة كانت متوهِّجةً في النُّفوس، مستقرَّةً في العقول؛ فقد كان المسلم في الشَّمال الإفريقي يحبُّ أخاه

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة لعلي الزَّهراني (١/ ١٤٢).

المسلم في الشَّام، ويبغض جاره النَّصرانيَّ، وهكذا في كلِّ الأقطار، والبلدان. وكان المسلم يحسُّ بإخوانه في كلِّ مكانٍ، وبما يقع لإخوانه في الدِّين من اعتداءاتٍ، ونكباتٍ، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنَّفير في سبيل الله، فكانوا إلى حدٍّ كبيرٍ كما وصفهم الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ؛ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر، والحمَّى»[1].

وقد بيَّنَّا مناصرة مسلمي الحجاز، وليبيا لإخوانهم في مصر عندما احتلَّها الفرنسيُّون في عام ١٢١٣هـ ـ ١٧٩٨م، وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السُّلطان عبد الحميد الثَّاني إلى فكرة الجامعة الإسلاميَّة، ودعوته لاتِّحاد المسلمين في العالم في مقابل التَّسلُّط الأوربيِّ والرُّوسي، وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدَّعوة إلى حدٍّ كبيرٍ، وتجاوب معها المسلمون في كلِّ مكانٍ على اختلاف لغاتهم، وألوانهم، وبلادهم، وليس أدلَّ على ذلك من تبرُّع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خطِّ سكَّة حديدٍ بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخطِّ. إنَّ الشُّعور بالتَّرابط الدِّيني بين المسلمين كان قويّـًا على الرَّغم من كثرة الانحرافات؛ الَّتي توحي بالفرقة والاختلاف، كالمذاهب الكلاميَّة، والفقهيَّة، والطُّرق الصُّوفيَّة، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمةً إلى حدٍّ كبيرٍ في نفوس العامَّة، لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنَّصارى أن يرَوا في تلك العقيدة جداراً صلبـًا، وحاجزاً قويّـًا، يقف أمام مخطَّطاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم، ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار، وتذويب ذلك الحاجز

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النَّاس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) رقم (٦٠١١).

عن طريق صنائعهم، وعملائهم في البلاد الإِسلاميَّة، وفي الدَّولة العثمانيَّة ممَّن بأيديهم مقاليد الأمور من السَّلاطين، والباشوات، كما حدث مع السُّلطان العثماني محمود الثَّاني المتوفَّى عام ١٨٣٩م الَّذي تزعَّم حركة الإِصلاح المقلِّدة للمنهج الأوربيِّ، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء والبراء، وحاول طمسها في النُّفوس، ويتجلَّى هذا الاتِّجاه الخطير في قول السُّلطان نفسه:

(.. إِنِّني لا أريد ـ ابتداءً من الآن ـ أن يميَّز المسلمون إِلا في المسجد، والمسيحيُّون إِلا في الكنيسة، واليهود إِلا في المعبد، إِنِّي أريد ما دام الجميع يتوجَّه نحوي بالتَّحيَّة أن يتمتَّع الجميع بالمساواة في الحقوق، وبحماية الأبويَّة، ومن هنا نعمت المسيحيَّة وغيرها في الدَّولة في ذلك العصر بحرِّيَّةٍ واسعة النِّطاق)[١].

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانيَّة، والأرمنيَّة، والكاثوليكيَّة انتشاراً واسعـًا بفضل رعاية السُّلطان، وتشجيعه[٢].

وقد ثار رجال إِحدى الحاميات العثمانيَّة ضدَّ احتمال إِلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النَّسق النِّمساوي، وطرد الثُّوَّارُ الباشا المرسل من قبل السُّلطان[٣].

(١) انظر: حركة الإِصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني، د. البحراوي، ص ٢١٤. وهذه الحرِّيَّة الَّتي نعموا بها استغلُّوها في التآمر على الدَّولة وعلى المسلمين.

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) المصدر السَّابق، ص ٢٥٨.

وقد سمح السُّلطان لرعاياه المسيحيِّين بارتداء الطَّربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلَّصهم من الرَّمز المميِّز لهم، وكان لذلك رنَّة فرحٍ شديدٍ عندهم، وقد حاول فرض الطَّربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلمَّا أبوا عليه ذلك تراجع مغطِّيًا موقفه بإعلان الجهاد ضدَّ الرُّوس[١].

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدَّولة العثمانيَّة بضبَّاط دانوا بالولاء لروسيا من قبل، وظلَّت الدَّولة غافلةً عن هذه الحقيقة، وبالتَّالي كان لروسيا عيونٌ في جيش السُّلطان الجديد، تزوِّدها بأدقِّ المعلومات والخطط)[٢]، وكم من هزيمةٍ ساحقةٍ تلقَّتها الدَّولة العثمانيَّة من روسيا، وكان من أسبابها تسرُّب المعلومات الهامَّة عن طريق هؤلاء.

هذا مثالٌ بارزٌ على ضعف عقيدة الولاء، والبراء لدى بعض السَّلاطين العثمانيِّين، وعدم الاهتمام بها.

أمَّا الباشا محمَّد علي والي مصر، فقد فُتن بالغرب، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم، وما فتئ خلال حكمه الطَّويل الَّذي بلغ خمسةً وأربعين عامًا تقريبًا يتولَّى الكفَّار، ويصانعهم، ويُعلي من شأنهم، ويقوم باتِّباعهم، والاقتباس من نظمهم، وقوانينهم، والسَّير في ركابهم، مع شدَّة بطشه، وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم، فقد تخطَّى عقيدة الولاء، والبراء، وضربها في الصَّميم؛ ليرضي أسياده الصَّليبيِّين، وليخضع أمَّته، وشعبه المسلم للمخطَّطات اليهوديَّة،

(١) المصدر السَّابق، ص ٢٦١.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٤٧.

فقد اعتاد محمَّد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النَّصارى واليهود، الَّذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملَّة الَّذين هم خاصَّته وجلساؤه، وأهل مشورته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدَّولة ونهب خيراتها[١].

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النَّصارى الصَّليبيِّين للبحث والتَّنقيب، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسةً دقيقةً، بل ومساعدته لهم، وتذليله الصِّعاب في طريقهم[٢].

لقد قام النَّصارى بدراسة مراكز الثَّروة، ودراسة المواقع دراسةً تخطيطيَّةً، ممَّا أفادهم ـ ولا شكَّ ـ في احتلال مصر فيما بعد عام ١٨٨٢م خصوصاً إذا علمنا أنَّ كثيراً من هؤلاء المنقِّبين كانوا من الإنجليز، وكانت هناك أهدافٌ أخرى لم يفطن لها كثيرٌ من الباحثين، ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشَّرق الأدنى، مجتمعه، وثقافته): (إنَّنا في كلِّ بلدٍ إسلاميٍّ دخلناه نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتدَّ مسلمٌ إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام، وبين تلك الحضارات...)[٣].

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسِّر اهتمامات هؤلاء النَّصارى بشقِّ البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم الأموال الطَّائلة في كشف الآثار، وتعريتها

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٦٥).
(٢) المصدر السَّابق (١/ ١٧٠).
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٢.

بـدءاً بالفرنسيِّين، ثمَّ الإنجليز الَّذين سـاروا على خطٍّ واحـدٍ في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[١].

يقول الأستاذ محمَّد قطب: (ولكن المخطَّط الخبيث الَّذي حمله الصَّليبيُّون معهم، وهم يجوسون خلال الدِّيار كان هو نبش الأرض الإسلاميَّة؛ لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائيّـًا من الولاء للإسلام)[٢].

وقدَّم محمَّد علي خدمةً لمخطَّطات الأعـداء بضرب الاتِّجاه الإسلاميِّ السَّلفي في الجزيرة العربيَّة تظاهراً بطاعة السُّلطان العثماني؛ الَّذي فقد السَّيطرة على بلاد الحرمين الشَّريفين، واتَّخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخطَّطات بريطانيا، وفرنسا اللَّتين رأتا الوجود السُّعوديَّ يشكِّل خطراً على مصالحهما، خصوصـًا في الخليج العربيِّ، والبحر الأحمر[٣].

وقد كان على رأس تلك الجيوش الَّتي وجَّهها محمَّد علي ضبَّاطٌ فرنسيُّون، وبعض النَّصارى[٤].

وقد سُرَّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمِّر، وكذلك بريطانيا، وأبلغت فرنسا محمَّد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنَّها ممنونةٌ ممَّا رأته من اقتداره على نشر أعلام التَّمدُّن في البلاد الشَّرقيَّة[٥].

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٧١).

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٢.

(٣) انظر: قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين، ص ١٨٩.

(٤) المصدر السَّابق، ص ١٨٧.

(٥) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٧٤).

وضايق محمَّد علي باشا العلماء، والفقهاء، والأزهريّين في لقمة العيش، وسيطر على الأوقاف التَّابعة للأزهر، وضمَّها للدَّولة، وبالتَّالي أحكم السَّيطرة على المشايخ القائمين على التَّعليم من رجال الأزهر[١]، وحتَّى الكتاتيب؛ الَّتي تعلِّم القرآن الكريم، والعلوم الأوَّليَّة للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج عن غائلة محمَّد علي؛ فقد ذكر الجبرتي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّ كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطُّل أوقافها، واستيلاء محمَّد علي عليها[٢].

وذكر الشَّيخ محمَّد عبده: أنَّ ما أبقاه محمَّد علي من أوقاف الأزهر، والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إِيرادها، وأنَّه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إِلى اليوم (في عهد الشَّيخ محمَّد عبده) لكانت غلَّته لا تقلُّ عن نصف مليون جنيه في السَّنة، وقرَّر له بذلك ما يساوي أربعة آلاف جنيه في السَّنة، بينما نجده قد اندفع نحو التَّغريب، وإِرسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

إِنَّ هذه السِّياسة التَّدميريَّة الَّتي نهجها محمَّد علي، والَّتي فُرضت قهراً على المسلمين كانت تنفيذاً للمخطَّط الصَّليبي؛ الَّذي عجزت الحملة الفرنسيَّة عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرَّحيل، وهو أمرٌ أكَّده المؤرِّخ الإِنجليزي أرنولد توينبي في قوله: (كان محمَّد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونيَّة إِلى حقائق فعَّالة في مصر)[٣].

---

(١) انظر: قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين، ص ١٧٩.

(٢) انظر: عجائب الآثار (٣/ ٤٧٨).

(٣) انظر: قراءةٌ جديدةٌ في تاريخ العثمانيِّين، ص ١٨٢.

لا شكَّ أنَّ محمَّد علي باشا كان صنيعةً من صنائع الغرب، وعميلاً من عملائهم، سواءٌ كان وصوله إلى سدَّة الحكم نتيجة تخطيطٍ صليبيٍّ، وعلى الأخصِّ تخطيطٍ فرنسيٍّ، أو كان نتيجةً لدهاء محمَّد علي، ومكره، وثقافته، أو كان للأمرين معـًا، فإنَّ هذا كلَّه لا يغيِّر من الأمر شيئـًا، ولا ينفي أنَّ محمَّد علي قد احتوته الدُّول الغربيَّة، وأخذت تقوده في ركابها، وخصوصـًا أنَّ فيه من الصِّفات، والخلال، الَّتي ينشدها المستعمرون دائمـًا، كجنون العظمة، وغلظة القلب، وفظاظة الطَّبع، ورقَّة الدِّيانة، أو عدمها[١].

وقد عمل محمَّد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء، واستخدم سياسة العسف والإرهاب، والتَّنكيل في أنحاء مملكته؛ لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرمـًا[٢].

ومع عظم الهالة الَّتي أحيط بها محمَّد علي من قبل المستشرقين، ومن اقتفى أثرهم من المؤرِّخين القوميِّين والعلمانيِّين، حول ما قام به من إصلاحاتٍ في كثيرٍ من المجالات التَّعليميَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة، إلا أنَّه من الثَّابت من سيرة محمَّد علي أنَّه يكره مسلمي مصر، ويحتقرهم، ويزدريهم أيَّما ازدراء، وليس أدلَّ من ذلك إلاَّ قوله: (ثقوا: أنَّ قراري لا ينبع من عاطفةٍ دينيَّةٍ، فأنتم تعرفونني، وتعلمون أنَّني متحرِّرٌ من هذه الاعتبارات؛ الَّتي يتقيَّد بها قومي.. وقد تقولون: إنَّ مواطنيَّ حميرٌ، وثيرانٌ، وهذه حقيقةٌ أعلمها)[٣].

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٨١).

(٢) المصدر السَّابق نفسه.

(٣) المصدر السَّابق (١/ ١٨٨).

وقد كان محمَّد علي باشا متواطئًا مع الفرنسيِّين عند احتلالهم الجزائر، حتَّى لقد همَّ ـ بعد أن جاءته الأوامر بالطَّبع ـ أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمةً للفرنسيِّين، وعملاً لحسابهم الخاصِّ إلا أنَّ أسياده رفضوا تلك الفكرة الَّتي تهيِّج المسلمين، وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم، لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمَّد علي بتزويد الفرنسيِّين في الجزائر بالغلال[١].

ويذهب الدُّكتور سليمان الغنَّام إلى أنَّ بريطانيا لمَّا علمت بعزم محمَّد علي؛ ثارت ثائرتها، وهدَّدته بنسف أسطوله إنْ هو فكَّر في ذلك.

هذه وقفةٌ مع باشا من باشوات الدَّولة العثمانيَّة عمل على إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمَّة المسلمة بشكلٍ مباشرٍ، تمثَّل في سياسة العسف والإرهاب، وبشكلٍ غير مباشرٍ اتَّخذ التَّغريب له مساراً، لقد استحقَّ محمَّد علي أن يكون رائد التَّغريب في العالم الإسلامي العربيِّ التَّابع للدَّولة العثمانيَّة، وسار أولاده، وأحفاده من بعده على نفس السِّياسة، فقد ظلُّوا يتعهَّدون غراس التَّغريب والعلمنة، ويسيرون في نفس الطَّريق، ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب وخطب ودِّه[٢].

إنَّ فئة من سلاطين الدَّولة العثمانيَّة وباشواتها أمعنوا في موالاة الكافرين، وألقوا إليهم بالمودَّة، وركنوا إليهم، واتَّخذوهم بطانةً من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمَّة، وأصابوها في الصَّميم،

(١) انظر: الشَّرق الإسلاميُّ، حسين مؤنس، ص ٣١١.
(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٨٩).

وبذلك تميَّعت شخصيَّة الدَّولة العثمانيَّة، وهويَّتها، وفقدت أبرز مقوِّماتها، وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها، ثمَّ مزَّقوها شرَّ ممزَّق.

ثانياً: انحصار مفهوم العبادة:

إنَّ من شروط التَّمكين الَّتي قام بها العثمانيُّون الأوائل تحقيق مفهوم العبوديَّة الشَّامل كما فهموه من القرآن الكريم، والسُّنَّة النَّبويَّة، وكما أخذوه عن السَّلف الصَّالح، رضوان الله عليهم.

ففهموا أنَّ الدِّين كلَّه عبادةٌ، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقيَّة الَّتي خلق الله الخلق لأجلها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكانت هي دعوة الرُّسل جميعاً من لدن نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى نبيِّنا محمَّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأقوامهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

لقد فهم العثمانيُّون الأوائل العبادة بمفهومها الشَّامل الَّذي أراده الله عَزَّوَجَلَّ، وهي أن تشمل كلَّ نشاطٍ في حياة الإنسان: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فأصبحت حياتهم حافلةً بالأعمال العظيمة من تقوية الدَّولة المسلمة، وتربيةٍ دائمةٍ لرعاياها، وتعليم القرآن، والعلم، وجهاد الكافرين، والمنافقين، وقيامٍ على أمور المسلمين، وتنفيذٍ لأهداف التَّمكين، ولذلك نجد العلامة الشَّيخ شمس الدِّين آق يجمع بين دوره في توجيه الأمَّة، وتعليمها، وتوظيف علم النَّبات، والطِّبِّ، والصَّيدلة لمصلحة المسلمين، لقد كان هذا الشَّيخ يتعبَّد المولى عَزَّوَجَلَّ بالعلم الدِّينيِّ، والدُّنيويِّ، وكانت له بحوثه في علم النَّبات، ومعالجة الأمراض المعدية، وألَّف في ذلك كتابًا، واهتمَّ أيضًا بمعالجة مرض السَّرطان، وكان مجاهداً في صفوف جيش محمَّد الفاتح، مربِّيًا لعوامِّ العثمانيِّين على طاعة الله تعالى، ومهتمّاً بتزكيتهم، وآمراً بالمعروف وناهيًا عن المنكر، وكان نعم المربِّي والنَّاصح لمحمَّد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينيَّة جاء محمَّد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشَّيخ، فمنعه الشَّيخ شمس الدِّين، وقال لمحمَّد الفاتح: (إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذَّةً تسقط عندها السَّلطنة من عينيك، فتختلُّ أمورها، فيمقت الله علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا، وكذا، وذكر له شيئًا من النَّصائح).

إنَّ هذا الفهم الجميل هو الَّذي سارت به الدَّولة العثمانيَّة عندما كان للعلماء الرَّبَّانيِّين صدارة التَّوجيه والإرشاد والتَّعليم، ولذلك نجد نهوضًا شاملاً في عصر السُّلطان محمَّد الفاتح في جميع شؤون الحياة التَّربويَّة والسِّياسيَّة والاقتصاديَّة والعسكريَّة والاجتماعيَّة والعلميَّة. كلُّ ذلك النُّهوض مستمدٌّ من مفهوم العبوديَّة الشَّامل الَّذي فهموه من الشَّريعة الغرَّاء، ولذلك نجد في الدَّولة العثمانيَّة في عصر مجدها وقوَّتها تفوُّقًا في كلِّ المجالات، فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم

الرَّيِّس بيري في زمن السُّلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، وكان الرَّيِّس بيري قائداً للبحريَّة العثمانيَّة، وعالمـًا جغرافيّـًا فذّاً (ولد عام ١٤٦٥م وتوفِّي عام ١٥٥٤م).

كان هذا العالم الجغرافي رائداً من روَّاد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني، وله في هذا المضمار خريطتان هامَّتان، الأولى لإسبانيا، وغرب أفريقية، والمحيط الأطلسي، والسَّواحل الشَّرقيَّة من الأمريكتين.. وهذه قدَّمها إلى السُّلطان سليم الأوَّل في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في إسطنبول (٦٠×٨٥ سم) وعليها توقيع الرَّيِّس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨×٦٩ سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو بإسطنبول أيضـًا.

والجدير بالذِّكر أنَّ الخريطة الَّتي رسمها الرَّيِّس بيري لأمريكا هي أقدم خريطةٍ لها.

في ٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ندوةٌ إذاعيَّةٌ عن خرائط الرَّيِّس بيري، اتَّفق كلُّ الجغرافيِّين المشتركين فيها بأنَّ خرائط الرَّيِّس بيري لأمريكا: (اكتشافٌ خارقٌ للعادة).

وقد كان الرَّيِّس بيري على معرفةٍ بوجود أميركا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحريَّة: (إنَّ بحر المغرب ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ بحرٌ عظيمٌ، يمتدُّ بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته، وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارَّةٌ هي قارَّة أنتيليا)، وتعبير قارَّة أنتيليا هي الدُّنيا، أو أميركا، وقد كتب

الرَّيِّس: أنَّ هذه القارَّة اكتشفت عام (٨٧٠هـ ـ ١٤٦٥م) أي: قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي ٢٧ سنة[١].

لقد ترك ريِّس بيري كتاباً في البحريَّة أثار بما فيه من معلوماتٍ، وخرائط دقيقةٍ، دهشةَ المعاصرين من علماء الجغرافية في أميركا وأوربَّة... معلوماتٌ وخرائط أثبت العالم المعاصر صحَّتها.

وقد ذكر الرَّاهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون ما يدلُّ على عبقريَّة القائد العثماني الريِّس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الرَّيِّس بيري صحيحةٌ بدرجةٍ مذهلةٍ للعقل، خاصَّة أنَّها تُظْهِرُ بوضوحٍ أماكن لم تكن قد اكتشفت حتَّى أيَّامه في القرن السَّادس عشر الميلادي.. إنَّ الجانب المذهل في مكانة بيري هو رسمه لجبال أنتاركتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أنَّ هذه الجبال، لم يكن أحدٌ قد تمكَّن من اكتشافها إلا في عام ١٩٥٢م أي: في النِّصف الثَّاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدِّمة العاكسة للصَّوت، أمَّا قبل القائد العثماني الرَّيِّس بيري ـ يعني حتَّى القرن السَّادس عشر الميلادي ـ لم يكن أحدٌ يعرف أن أنتاركتيكا موجودةٌ، إذ كانت مغطَّاةً بالجليد طوال عصور التَّاريخ)[٢].

والمعروف أنَّ أنتاركتيكا هي القارَّة السَّادسة، والواقعة في نصف الكرة الأرضيَّة الجنوبي، لم يقتصر الذُّهول على الرَّاهب لاين هام فقط، بل تعدَّاه

(١) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ، والحضارة، ص ٣٨٢.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٣٨٣.

إِلى كثيرٍ من العلماء، والكتَّاب، لقد قارن بعض العلماء صور الأرض الَّتي تمَّ التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط الَّتي رسمها القائد البحريُّ العثمانيُّ الرَّيِّس بيري في البدايات المبكِّرة للقرن السَّادس عشر فاتَّضح التَّشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري[1].

إِنَّ النَّهضة في الدَّولة العثمانيَّة في عصورها الزَّاهية كان في كلِّ المستويات العلميَّة، والشَّعبيَّة، والحكوميَّة، والعسكريَّة، وكانت حركة الدَّولة، والأمَّة تعبيراً صادقـًا لمفهوم العبوديَّة الشَّامل، أمَّا في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة؛ فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشَّعائر التَّعبُّديَّة؛ الَّتي أصبحت تؤدَّى كعادةٍ موروثةٍ، ليس لها من أثرٍ في حياة ممارسيها، اللَّهُمَّ إِلا ما تستغرقه من زمنٍ لأدائها، (وتمَّ عزل العبادة عن بقيَّة الإِسلام حتَّى كأنَّ الإِسلام منحصرٌ فيها، دون بقيَّة الأجزاء، كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات، أو العلاقات الماليَّة، ومع أنَّ أكثر النَّاس ـ إِن لم نقل: كلُّهم ـ يعلمون أنَّ الإِسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإِنَّهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضُّوا النَّظر عنها، وأنزلوا مرتبتها، ودعا فريقٌ من المرشدين إِلى الإِعـراض عمَّا سوى هذه العبادات، فالجهاد وإِنكار المنكر وردُّ الطُّغيان والاستعمار ومقاومة الظُّلم، والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامَّة، كلُّ ذلك في نظر هذا الفريق من النَّاس ـ وما أكثرهم في عصور الانحطاط ـ فضولٌ يشغل عن الله وعبادته.. وبينما كانت مقاييس الصَّلاح، والتَّقوى في الإِسلام شاملةً لجميع الواجبات؛ الَّتي أوجبها

(١) المصدر السَّابق، ص ٣٨٤.

الإسلام من عبادات خاصَّةٍ، وجهادٍ وعلمٍ وعدلٍ وعملٍ نافعٍ للناس واستقامةٍ في المعاملة، وإحسانٍ، كلُّ ذلك مقرونـًا بتوحيد الله، والإخلاص له، أصبحت مقاييس التَّقوى محصورةً في العبادات)[1].

وهكذا أعانت هذه الفكرة الَّتي عزلت العبادة عن بقيَّة أجزاء النِّظام الإسلاميِّ الشَّامل على ضعف الوعي السِّياسي والاجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبَّب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيَّاتٍ، من أهمِّها:

ـ صارت الشَّعائر التَّعبُّديَّة تؤدَّى بصورةٍ تقليديَّةٍ، عديمة الأثر، والفائدة حين عُزلت عن بقيَّة أمور الإسلام، فلا تؤدِّي هذه الشَّعائر دورها في حياة الإنسان، وقد عُزلت عن بقيَّة جوانب العبادة الأخرى، فالصَّلاة الَّتي يخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لم تعد ذات أثرٍ واقعيٍّ في حياة مؤدِّيها من النَّاس؛ حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر؛ وقد حُصرت العبادة في أداء الشَّعائر التَّعبُّديَّة فحسب.

ـ تهاون النَّاس في بقيَّة جوانب العبادات الأخرى؛ إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيءٍ حين نرى من المسلمين من يُصلِّي الفروض جماعةً في المسجد، ثمَّ يخرج، ويحلف على عتبة المسجد كاذبـًا، ويغشُّ في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الرِّبا أضعافـًا مضاعفةً، ويقع في أعراض النَّاس، ثمَّ تراه سادراً في ذلك مرتاح الضَّمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره، وتأنيب نفسه بما نَقَرَهُ من ركعاتٍ.

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ١٠٠).

ـ العناية بالجانب الفردي الشَّخصي، وإِهمال الجوانب الاجتماعيَّة، فنجد أنَّ المسلمين قد (عنوا بالآداب الفرديَّة، والمتعلِّقة بذات الإِنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعيَّة المتعلِّقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً، ولكنَّه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أنَّ: «إِماطة الأذى عن الطَّريق من شُعَب الإِيمان» كما ورد في الحديث[١].

وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطَّهارة، وشروط النَّظافة في نفسه، ولكنَّه لا يبالي أن يلوِّث للنَّاس طرقهم، وأماكن جلوسهم، وأن يخلَّ بالآداب الاجتماعيَّة الَّتي أمر الإِسلام بها)[٢].

ونتيجةً لكون مفهوم العبادة انحصر في الشَّعائر وحدها، وخرجت منها بقيَّة الأعمال اهتمَّ النَّاس بشؤونهم الخاصَّة، وأهملوا شؤونهم العامَّة، ونمت روح الفرديَّة على حساب الرُّوح الاجتماعيَّة.

ـ إِقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها، وشعائرها، وبما أُحْدِثَ فيها من بدعٍ عن اتِّخاذ الأسباب:

(قراءة القرآن، وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه من آيات الجهاد، والنَّظر إِلى الكون، والتَّفكير فيما خلق الله، وإِقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل الله، واستثمار ما في الكون من نعم الله مع أنَّ ذلك كلَّه عبادةٌ.. وبينما كان الرَّسول ﷺ يستعدُّ لقتال المشركين كلَّ الاستعداد كما

(١) مسلم، كتاب الإِيمان، باب بيان عدد شعب الإِيمان (١/ ٦٣).

(٢) انظر: المجتمع الإِسلامي المعاصر لمحمَّد المبارك، ص ٦٦.

أمره الله، ويدعو الله، ويبتهل إليه لينصره؛ إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة، يجعلون الصَّلاة والدُّعاء ـ المأثور منه، والمبتدع المخترع ـ بديلاً عن الأسباب، فيلتمسون الرِّزق، والشِّفاء، والنَّصر، لا بأسبابها المشروعة الَّتي جعلها الله سبباً وطريقاً إليها، بل بأدعيةٍ خاصَّةٍ يقتصرون على تلاوتها، وربَّما اخترعوا لذلك رقىً وتمائم وحجباً وزياراتٍ لأمكنة خاصَّةٍ، وأوراداً ابتدعوها..)[١].

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السِّياسيُّ بما يشتمل عليه من رقابة الأمَّة على أعمال الحاكم، وتقديم النَّصيحة إليه، والسَّهر على تطبيق الشَّريعة، وإجراء العدل في حياة النَّاس.

وما أجمل ما قاله سيِّد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة، واستنكاره لمن يحصرها في الشَّعائر التَّعبُّديَّة: (الواقع أنَّه لو كان حقيقة العبادة هي مجرَّد الشَّعائر التَّعبُّديَّة ما استحقَّت كلَّ هذا الموكب الكريم من الرُّسل والرِّسالات، وما استحقَّت كلَّ هذه الجهود المضنية الَّتي بذلها الرُّسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وما استحقَّت كلَّ هذه العذابات، والآلام الَّتي تعرَّض لها الدُّعاة، والمؤمنون على مدار الزَّمان! إنَّما استحقَّ كلُّ هذا الثَّمن الباهظ هو إخراج البشر جملةً من الدَّينونة للعباد، وردُّهم إلى الدَّينونة لله وحده في كلِّ أمرٍ، وفي كلِّ شأنٍ، وفي منهج حياتهم كلِّه للدُّنيا، وللآخرة سواءً)[٢].

---

(١) انظر: المصدر السَّابق، ص ٦٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٨).

وهذا معنى العبادة الشَّامل الَّذي وعاه العثمانيُّون الأوائل، فطبَّقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطَّواغيت، ومكَّن الله لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفَّاقةً فوق بقاعٍ شاسعةٍ من المعمورة، ويوم تبدَّل ذلك المفهوم، وانحصر في دائرة الشَّعائر؛ فترت الهمم، وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملةً، فوقع الضَّعف، ثمَّ السُّقوط.

إنَّ ما حلَّ بالدَّولة العثمانيَّة من هزائم عسكريَّةٍ، وأزماتٍ اقتصاديَّةٍ، وانحرافاتٍ خلقيَّةٍ، ومصائب اجتماعيَّةٍ، وتلوُّثاتٍ فكريَّةٍ، وجفافٍ روحيٍّ، وتأخُّرٍ حضاريٍّ، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشَّامل.

"فيوم كانت: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠] عبادةً؛ لم يجرؤ أحدٌ على احتلال أراضي المسلمين، واستلاب خيراتهم! ويوم كان: «طلب العلم فريضةً» لم يكن هناك تخلُّفٌ علميٌّ، بل كانت الأمَّة المسلمة هي أمَّة العلم؛ الَّتي تعلَّمت أوربَّة في مدارسها، وجامعاتها!

ويوم كانت: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ﴾ [الملك: ١٥] عبادةً؛ كانت المجتمعات الإسلاميَّة أغنى مجتمعات الأرض!

ويوم كانت «كلُّكم راعٍ، وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته» عبادةً، وكان وليُّ الأمر يستشعر أنَّه راعٍ، ومسؤولٌ عن رعيَّته؛ لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضيَّةٌ؛ لأنَّ العلاج الرَّبَّانيَّ لمشكلة الفقر كان يطبَّق في المجتمع الإسلاميِّ عبادةً لله!

ويوم كانت: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: ١٩]عبادةً؛ لم تكن للمرأة المسلمة قضيَّةٌ؛ لأنَّ كلَّ الحقوق، والضَّمانات الَّتي أمر الله بها كانت تؤدَّى إليها طاعةً لله، وعبادةً لله.."[١].

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشَّامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخِّرة للدَّولة العثمانيَّة لشيوع المذهب العلمانيِّ، وهيمنة الشِّعارات العلمانيَّة على كثيرٍ من الأقاليم التَّابعة للدَّولة العثمانيَّة.

ثالثاً: انتشار مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات:

إنَّ الدَّولة العثمانيَّة في القرنين الأخيرين كانت غارقةً في كثيرٍ من مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات، وحدث انحرافٌ في توحيد الألوهيَّة انحرافاً رهيباً، وغشيها موجٌ من الظَّلام، والجهل حجب عنها حقيقة الدِّين، وطمس فيها نور التَّوحيد، وعدل بها عن صراطه المستقيم[٢].

يوم كانت الدَّولة العثمانيَّة محقِّقةً للتَّوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشَّامل، وتحارب الشِّرك كانت في ذروة التَّمكين، والعزِّ، والنَّصر من الله تعالى، فهذا السُّلطان مراد الأوَّل وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جنديٌّ صربيٌّ يودِّع الدنيا بمعانٍ عميقةٍ في التَّوحيد، وكلماتٍ جامعةٍ على التَّوحيد المنافي للشِّرك، فيقول: (لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله، إنَّه علام الغيوب المتقبِّل دعاء الفقير، أشهد أنَّ لا إله إلا الله، وليس يستحقُّ الشُّكر، والثَّناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النِّهاية، ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذِّبوا

(١) انظر: مفاهيم يجب أن تصحَّح لمحمَّد قطب، ص ٢٤٩.

(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٧١).

الأسرى، ولا تؤذوهم، ولا تسلبوهم، وأودِّعكم منذ هذه اللَّحظة، وأودِّع جيشنا الظَّافر العظيم إلى رحمة الله، فهو الَّذي يحفظ دولتنا من كلِّ سوءٍ)[١].

أمَّا السُّلطان مراد الثَّاني فقد ترك وصيَّته: (فليأتِ يومٌ يرى النَّاس فيه ترابي)[٢] لقد كان قلقًا يخشى أن يدفن في قبرٍ ضخمٍ، وكان يريد ألا يُبنى شيءٌ على مكان دفنه.

لقد كان السَّلاطين الأوائل تتفجَّر معاني التَّوحيد في كلماتهم، وتنعكس على أعمالهم، وانتشرت تلك المفاهيم في الشَّعب العثمانيِّ قاطبةً، أمَّا في العصور المتأخِّرة؛ فقد تغيَّر الحال، ومع تضافر الأدّلة، وتواترها، ووضوحها في النَّهي عن كلِّ السُّبل المفضية إلى الشِّرك، وتحذير النَّبيِّ ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله ﷺ في الصَّحيحين: «لعن الله اليهود، والنَّصارى، اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد!» يحذِّر مثل ما صنعوا[٣].

قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأُبرز قبره، ولكن كُره أن يُتَّخذ مسجداً[٤]. وقوله ﷺ: «لعن الله زائرات القبور، والمتَّخذين عليها المساجد، والسُّرج!»[٥].

---

(١) انظر: الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور، ص ٣٩١.
(٢) انظر: العثمانيُّون في التَّاريخ والحضارة، ص ٣٤٦.
(٣) مسلم، باب النهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٣٧٦).
(٤) البخاريُّ، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتِّخاذ المساجد على القبور رقم (١٣٣٠).
(٥) التِّرمذيُّ، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن يُتَّخذ على القبر مسجدٌ، رقم (٣٢٠).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل أن يموت بخمس: «إِنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتَّخذون القبور مساجد، ألا فلا تتَّخذوا القبور مساجد! فإِنِّي أنهاكم عن ذلك!»[١].

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد! اشتدَّ غضب الله على قومٍ اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد!»[٢]، وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلُّوا إِليها!»[٣].

وحين ذكرت له بعض نسائه كنيسةً رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أولئك إِذا مات فيهم الرَّجل الصَّالح؛ بنوا على قبره مسجداً، ثمَّ صوَّروا فيه تلك الصُّور، أولئك شرار الخلق عند الله!»[٤].

ونهيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يجصَّص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه، وجاء في روايةٍ أخرى النَّهي عن الكتابة على القبور[٥]. وفي أواخر الدَّولة العثمانيَّة كثُر على غير العادة تشييد القباب، وبناء الأضرحة، وإِقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتَّى لكأنَّ هذه النُّصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله، وتحثُّ عليه.

---

(١) مسلمٌ، كتاب المساجد ومواضع الصَّلاة، باب النَّهي عن بناء المساجد على القبور، رقم (٥٣٢).

(٢) رواه مالكٌ في الموطَّأ (١/ ١٧٢).

(٣) مسلمٌ، كتاب الجنائز، باب النَّهي عن الجلوس على القبور، رقم (٩٧٢).

(٤) البخاريُّ: كتاب الصَّلاة، باب: هل تنبش قبور مشركي الجاهليَّة؟ رقم (٤٢٧).

(٥) التِّرمذيُّ، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهيَّة تجصيص القبور، صحَّحه الألباني رقم (٧٥٧).

وزاد الأمر سوءاً: أنَّ بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميِّت فاضلاً، واحتجُّوا بقولهم: إنَّ بعض السَّلف استحسن ذلك، وزاد الطِّين بِلَّةً: أنَّهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنَّفاتهم؛ الَّتي يعكف على دراستها الطُّلاب[١].

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية، والمزارات الوثنية في الأمم هم الشيعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع: (فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان[٢] كتاباً في «مناسك حج المشاهد» وكذبوا فيه على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيّروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد).

وانتقل هذا الوباء العظيم، وبدأ في نخر الدَّولة العثمانيَّة، وتعاظم شرُّه، ووقع ما حذَّر منه النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الشِّرك العظيم.

---

(١) الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٢) من كبار الشيعة الإسماعيلية في مصر.

وقد تجلَّت مظاهر الشِّرك، ووسائله في تلك الفترة في الصُّور التَّالية:

ـ بناء المساجد، والقباب، والمشاهد على الأضرحة، والقبور في أقاليم الدَّولة، بل انتشر ذلك في العالم الإسلاميِّ كلِّه، وللأسف الشَّديد نجد الدَّولة العثمانيَّة في العصور المتأخِّرة تشجِّع على تلك المشاهد، والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي، فمثلاً أعفت الدَّولة أهالي البصرة من الرُّسوم، والتَّكاليف احتراماً لصاحب الحضرة الشَّريفة، يعني: الزُّبير بن العوَّام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنَّ العثمانيِّين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السُّلطان عبد العزيز بترميم القباب، وتكبير المسجد. وفي سنة ١٢٩٣هـ ورد أمرٌ من السُّلطان عبد الحميد الثَّاني بتعمير هذه المراقد الشَّريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السَّعدون).

ثمَّ في سنة ١٥٠٣هـ أمر السُّلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القباب، وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضَّريحين (الزُّبير، وعتبة بن غزوان) من الحرير الأحمر المفتخر المطرَّز بالفضَّة، وأمر أيضاً بوضع مباخر، وقماقم من الفضَّة عند الضَّريحين الكريمين[1]. وكانت جميع الأقاليم الإسلاميَّة، وفي الحجاز، واليمن، وإفريقية، ومصر، والمغرب العربيِّ، والعراق، والشَّام، وتركيَّا، وإيران، وبلاد ما وراء النَّهر، والهند، وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة، والقباب، وتتنافس في تعظيمها، والاحتفاء بها؛ إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشَّرف الَّذي يتوق إليه الكثيرون.

لقد أولع العثمانيُّون في عصورهم المتأخِّرة بالبناء على كلِّ ما يعظِّمه النَّاس في ذلك العصر، سواءٌ أكان ما يعظِّمونه قبوراً، أو آثاراً لأنبياء، أو غير ذلك.

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٢٩٤).

وأصبحت تلك المشاهد، والأضرحة محلاً للاستغاثة، والاستعانة بأصحابها، وانتشرت عقائد شركيَّةٌ، كالذَّبح لغير وجه الله، والنَّذر للأضرحة، والاستشفاء، وطلب البراء من الأضرحة، والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة النَّاس، وهكذا طغت هذه الأضرحة على حياة النَّاس، وأصبحت مهيمنةً على شؤونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوَّأت في نفوسهم، وقلوبهم أعلى مكانةٍ، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلوِّ، والشِّرك بالأموات، والتَّعلُّق بهم من دون الله، عَزَّوَجَلَّ، فلا يبرمون من أمورهم صغيرةً، ولا كبيرةً إلا بعد الرُّجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها، واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضرّاً، ولا نفعاً، فكيف لغيرهم؟! وقد كان العلماء وللأسف الشَّديد يتقدَّمون العامَّة، ويسنُّون لهم السُّنن السَّيِّئة في تعظيم الأضرحة، والمقامات، والولوع بها، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى النَّاس في الشِّرك، والضَّلال، وأمعنوا في الوثنيَّة، ومحاربة التَّوحيد، فلم يكتفوا بالمقبورين، والأحياء، بل أشركوا بالأشجار، والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامَّة في بغداد في مدفعٍ قديمٍ في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السُّلطان مراد العثماني الَّتي استخدمها في حربه مع الفرس، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدِّمون إليه النُّذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم، وهو يُعرف عندهم: «طوب أبي خزامة» ممَّا حدا بالعلامة محمود شكري الآلوسي إلى التَّصدِّي لهذه الخرافة الشَّنيعة بكتابة رسالةٍ يزجر بها هؤلاء الجاهلين، أسماها بـ: (القول الأنفع في الرَّدع عن زيارة المدفع)[1].

(١) المصدر السَّابق (١/ ٣٦٧).

واعتاد النَّاس في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أن يحلفوا بغير الله عَزَّوَجَلَّ من المخلوقين، وكان يسهل عليهم الحلف بالله كاذبًا، عامداً، متعمِّداً، ولكنَّه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظَّمه من المخلوقين إلا صادقًا.

ـ انتشار البدع:

كان السَّلاطين الأوائل في الدَّولة العثمانيَّة ينفِّرون من البدع، وأهلها، ويحاربونها، فهذا السُّلطان محمد الفاتح في وصيَّته يقول لمن بعده: «جانب البدع، وأهلها، وباعد الَّذين يحرِّضونك عليها». أمَّا في العصور المتأخِّرة من الدَّولة العثمانيَّة؛ فإنَّ البدع انتشرت انتشاراً ذريعًا، وأصبحت حياة رعايا الدَّولة ممزوجةً بها، فقلَّما تخلو منها عبادةٌ، أو عملٌ، أو شأنٌ من شؤون الحياة، سواءٌ في الجنائز، والمآتم، والأعراس، والضِّيافات، والولائم، وبدع الموالد عند المتصوِّفة المنحرفين، وهكذا أصبحت البدع تُرى في كلِّ مكانٍ، تكاد تحتلُّ منزلة الصَّدارة من حياة النَّاس، يعمل بها الجاهلون، ويؤيِّدها العالمون، وأصبحت السُّنَّة بدعةً، والبدعة سنَّةً[١]، وتغيَّر مفهوم الدِّين والعلم من منهجٍ كاملٍ، وشاملٍ لجميع مجالات الحياة إلى طقوس غريبةٍ، ورسومٍ باليةٍ يتشبَّثون بها، ويحسبون أنَّهم مهتدون. وتحوَّل صحيح البخاريِّ بما حواه من منهجٍ للنَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى تقليدٍ بالٍ رتيبٍ، يُتلى في الأزمات، ويُقرأ في الحروب، طلبًا للنَّصر، ودحر الأعداء[٢].

---

(١) انظر: مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، ص ٣٧٣.

(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٣٨٠).

لقد أضحت السُّنَّة في تلك الفترة غريبةً جدّاً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار النَّاس متشبِّثين بالبدع على أنَّها من صميم الدِّين، ويأبون التَّفريط فيها مطلقاً، في الوقت الَّذي كانوا يفرِّطون فيه في كثيرٍ من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهد عليها، ويرون أنَّهم خدموا الدِّين، ونفعوا المسلمين[١].

ـ انتشار الخرافات:

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة فشت الخرافات، والأساطير في جموع المسلمين بشكلٍ منقطع النَّظير، وأضحت كحقائق مسلَّمةً لا تقبل النِّقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنَّما غدت عند كثيرٍ منهم أموراً مقدَّسةً لا يجوز التَّهاون بها، فضلاً عن التَّشكيك في صحَّتها.

ومن الخرافات في الآستانة أنَّ جامع خوجة مصطفى باشا محاطٌ بجنزيرٍ مربوطٌ فيه بشجرة سروٍ قديمةٍ، ولهذا الجنزير خرافةٌ يتناقلها الجهلاء، مؤدَّاها: أنَّ كلَّ من أنكر شيئاً حقيقيّاً، وجلس تحت هذا الجنزير، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً في إنكاره، فالجنزير لا يتحرَّك[٢]. لقد كانت الأمَّة في تلك الفترة غارقةً في عبادة الأضرحة، والتَّعلُّق بها من دون الله، عَزَّوَجَلَّ، ووقعت فريسةً لكثيرٍ من مظاهر الشِّرك والغلوِّ والبدع والخرافات، الَّتي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها عن طريقها الصَّحيح، فعجزت عن

(١) المصدر السَّابق (١/ ٤٢٨).

(٢) المصدر السَّابق (١/ ٤٣٢).

النُّهوض من كبوتها، وما استطاعت أن تعالج أسباب انحطاطها؟ وانهزمت أمام جيوش الأعداء، ووهنت عن مقاومة مخطَّطاتهم، ومؤامراتهم، وكانت النَّتيجة ضياع الدَّولة العثمانيَّة.

رابعاً: الصُّوفيَّة المنحرفة:

إنَّ أعظم انحرافٍ وقع في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة ظهور الصُّوفية المنحرفة، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد، وأفكار، وعبادات بعيدةً عن كتاب الله، وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد قوي عود الصُّوفيَّة المنحرفة، واشتدَّت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعدِّدةٍ، منها:

١ ـ الأحوال السَّيِّئة الَّتي كانت تعيشها الأمَّة الإسلاميَّة، والواقع المرير الَّذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلُّف، والظُّلم، والطُّغيان، والفقر، والمرض، والجهل، كلُّ ذلك جعل النَّاس يرتمون في أحضان الصُّوفية المنحرفة، الَّتي لا تقوم بأكثر من التَّربيت عليهم، والتَّحذير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الَّذي فرُّوا منه.

٢ ـ كان اضطراب الأمن، وانعدامه سمةً من سمات العصور المتأخِّرة، حيث كانت تُزهق الأرواح لأسبابٍ تافهةٍ، بل دون سببٍ في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظُّروف العصيبة كان أرباب التصوُّف يحيون حياةً هادئةً يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدةً عن المصائب والفتن الَّتي فتكت بالنَّاس.

(قد كان الفقراء أروح بالاً، وأكثر طمأنينةً من الفلاحين في حقولهم، والتُّجار في متاجرهم، والصُّنَّاع في مصانعهم، فقد كانوا في أمنٍ من تطبيق القوانين..

وكانوا في أغلب فترات الظُّلم الفادح في نجاةٍ من هذه الشُّرور كلِّها؛ لأنَّ الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الرُّوحي، ويؤمنون باتِّصالهم بالله، فيتزلَّفون إليهم، ويطلبون الرِّضا منهم، فأقبل بعض النَّاس على دخول الطَّريق مدفوعاً بما سيصيبه من رحاب الزَّوايا من اطمئنان البال، واستقرار الحال)[١].

٣ ـ التَّرف في معيشة أرباب الفرق: (كان الفقراء فوق النَّجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عملٍ يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين، كاسين على نفقة المحسنين، والأثرياء بدعوى التَّفرُّغ للذِّكر، والانقطاع للتهجُّد، والتجرُّد لعبادة الله.. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزُّهاد الَّذين يدَّعون التقشُّف، والقناعة بالتَّافه من شؤون العيش أرغد عيشاً، وأترف حياةً من الفلاحين، والتُّجار، وأرباب الحرف..[٢].

٤ ـ حبُّ الأتراك العثمانيِّين للدَّروشة، والتصوُّف: (كان الأتراك يحبُّون التَّصوُّف، ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم)[٣].

(لقد كانت الصُّوفيَّة قد أخذت تنتشر في المجتمع العبَّاسي، ولكنَّها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أمَّا في ظلِّ الدَّولة العثمانيَّة، وفي تركيا بالذَّات؛ فقد صارت هي المجتمع، وصارت هي الدِّين، وانتشرت ـ في القرنين الأخيرين بصفةٍ

(١) انظر: التصوُّف في مصر إبَّان العصر العثماني، د. الطَّويل، ص ١٥٢ ـ ١٥٤.
(٢) المصدر السَّابق، ص ١٥٤.
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

خاصَّةٍ ـ تلك القولة العجيبة: مَنْ لا شيخ له؛ فشيخه الشَّيطان! وأصبحت ـ بالنِّسبة للعامَّة بصورةٍ عامَّة ـ هي مدخلهم إِلى الدِّين، وهي مجال ممارستهم للدِّين)[١].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصُّوفيَّة، ويفيضون عليها من عطفهم، وحدبهم، حتَّى جاء السلطان عبد الحميد إِلى السَّلطنة في ظروفٍ عصيبةٍ، والمؤامرات تحاك للأمَّة، والكوارث والمحن تحيط بها من كلِّ مكانٍ، ودعاة القوميَّة يبثُّون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إِلى الجامعة الإِسلاميَّة، والرَّابطة الدِّينيَّة، وكانت الصُّوفيَّة بجميع أصنافها، وطرقها تشكِّل ثقلاً في الدَّعوة إِلى الجامعة الإِسلاميَّة.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصُّوفيَّة الَّتي أطبقت على العالم الإِسلامي من أدناه إِلى أقصاه، ولم تبق مدينةٌ، ولا قريةٌ إلا دخلتها إِلا إِذا استثنينا نجداً، وملحقاتها[٢].

لقد سيطرت الصُّوفيَّة المنحرفة على العالم الإِسلامي في تلك الفترة، ووقع جمهورٌ من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوِّفة في ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوَّته ونفوذه إِلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها؛ لكفى، فكيف إِذا تبنَّته الدَّولة، وناصره الحكام[٣]؟!

وكانت نظرة المتصوِّفة المنحرفة تحترم البطالة، وتبيح التَّسوُّل، وتصطنع الضِّيق، وتسعى إِلى مواطن الذُّلِّ، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إِلى الأخذ

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٥.
(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٤٤٧).
(٣) المصدر السَّابق نفسه.

بالأسباب منحرفةً جدّاً: (فما أخيب التَّاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزَّارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصَّانع الَّذي يبذل نشاطه في صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسبٍ، أو رغبةً في مالٍ، فإنَّ الرزق في طلب صاحبه دائرٌ، والمرزوق في طلب رزقه حائرٌ، وبسكون أحدهما يتحرَّك الآخر...!!).

وفسدت لدى كثير من المتصوِّفة عقيدة القضاء والقدر، وأصبحت عندهم عقيدةً سلبيَّةً مخذِّلةً، لقد كتب أحد المستشرقين الألمان؛ وهو يؤرِّخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة، يقول: (طبيعة المسلم التَّسليم لإرادة الله، والرِّضا بقضائه وقدره، والخضوع بكلِّ ما يملك للواحد القهَّار، وكان لهذه الطَّاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأوَّل لعبت دوراً كبيراً في الحروب؛ إذ حقَّقت نصراً متواصلاً؛ لأنَّها دفعت في الجندي روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الَّذي خيَّم على العالم الإسلامي، فقذف به إلى الانحدار، وعزله، وطواه عن تيَّارات الأحداث العالميَّة)[1].

إنَّ هذا الرَّجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السَّلف، وبين الإيمان الَّذي ابتدعه الخلف متأثِّرين بالمتصوِّفة، فالذَّنب ليس ذنب العقيدة، بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمَّد إقبال شعراً، فقال:

مِنَ القرآن قَدْ تَرَكُوا المَسَاعِي وَبِالقرآن قَدْ مَلَكُوا الثُّرَيَّا
إِلَى التَّقْدِيرِ رَدُّوا كُلَّ سَعْيٍ وَكَانَ زِمَاعُهُمْ قَدَراً خَفِيَّا

(١) انظر: الإسلام قوَّة الغد العالميَّة، باول سمتز، ص ٧٨.

تَبَدَّلَتِ الضَّمَائِرُ فِي إِسَارٍ فَمَا كَرِهُوهُ صَارَ لَهُمْ رَضِيَّا[١]

وقد استغلَّ نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لمَّا احتلت جيوشه الصَّليبيَّة أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأنَّ ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدرٍ من الله، فمن حاول الاعتراض على ما وقع، فكأنَّما يعترض على القضاء والقدر[٢].

لقد كانت مفاهيم التَّصوُّف المنحرف تنخر في كيان الدَّولة العثمانيَّة، وكان العالم الصَّليبي ينطلق في مجالات العلم، وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوَّة، والتَّقدُّم، والرُّقيِّ، ويدير المؤامرات، والدَّسائس لتفتيت الدَّولة العثمانيَّة، ومن ثمَّ الهيمنة على العالم الإسلامي.

وكان المتصوِّفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهي، والمعازف، ويتعلَّمون الموسيقا، وكانت مجالسهم مليئةً بالطُّبول، والنَّايات، والأعلام، والرَّايات، وكانت كثيرٌ من الطُّرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذِّكر فيها من الدَّفِّ؛ حتَّى قال أبو الهدى الصَّيَّادي، وهو من خواصِّ السُّلطان عبد الحميد الثاني، ومن أنصار الجامعة الإسلاميَّة:

اضْرِبِ الدُّفَّ وَجَانِبْ جَاهِلاً حِكْمَةَ الشَّرْعِ لِمَعْنَى مَا دَرَى
كُلُّ مَا حَرَّكَ قَلْبًا سَاكِنًا وَدَعَا الْعَقْلَ مِنْهُ مُعْتَبِرا
وَأَجَالَ الرُّوحَ فِي بَرْزَخِهَا تَذْكُرُ الله وتَبْغِي مَظْهَرا

(١) انظر: العلمانيَّة، سفر الحوالي، ص ٥١٩.
(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٤٦٧).

فَهُـوَ بِـرٌّ وَالَّـذِي يَفْعَلُـهُ فَعَـلَ الْبِـرَّ وَالله يَـرَى
إِنَّ فِـي الـدُّفِّ وَفِـي رنَّتِـهِ نَغْمَـةٌ يَعْرِفُهَـا مَـنْ ذَكَـرَا
صَوْتُـهُ ذِكْـرٌ، وَفـي بُحَّتِـه أَنَّـةٌ تُذَكِّـرُ أَوْقَـاتَ السَّـرَى
نَضْـرِب الـدُّفَّ وَمِنْـهُ عِنْدَنَـا ذَاكِـراً نَسْـمَعُهُ لَـنْ يَفْتُـرَا[1]

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوِّفة منزلةٌ عظيمةٌ، يقول أبو الهدى الصَّيادي: (مَنْ لم يحركه السَّماع فهو ناقصٌ، مائلٌ عن لطف الاعتدال، بعيد عن نور الرُّوحانيَّة، زائدٌ في غلظة الطَّبع، وكثافته، بل هو أبلد من الجماد، والطُّيور، وسائر البهائم، فإنَّ جميعها تتأثَّر بالنَّغمات الموزونة.. وبالجملة فالسَّماع يثمر حالةً في القلب، وتسمَّى: وَجْداً، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إمَّا بحركةٍ غير موزونة، فتُسمَّى: الاضطراب، وإمَّا بحركةٍ موزونةٍ فتُسمَّى: التَّصفيق، والرَّقص)[2].

ويا ليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطَّرب، والسَّماع، والغناء، ولكنَّهم جعلوه إلى الله قربةً، وعدُّوه طاعةً، تلين بها القلوب، وتشفُّ بها الأرواح.

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن قيِّم الجوزيَّة عن هؤلاء المتصوِّفة حيث يقول: «فلو رأيتهم عند ذيَّاك السَّماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكلِّيَّتها عليه، وانصبَّت انصبابةً واحدةً

(١) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذِّكر والسَّماع، للصَّيادي، ص ٤٥.
(٢) المصدر السَّابق، ص ٧٨.

إليه، فتمايلوا له كتمايل النَّشوان، وتكسَّروا في حركاتهم، ورقصهم، أرأيت تكسّر المخانيث، والنِّسوان؟!

ويحقُّ لهم ذلك، وقد خالط خمرة النُّفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حُمَّيا الكؤوس! فلغير الله، بل للشيطان، قلوب هناك تُمَزَّق، وأثوابٌ في غير طاعة تنفق، حتَّى إذا عمل السُّكر فيها عملَه، وبلغ الشَّيطان منهم أمنيته، وأمله، واستفزَّهم بصوته، وحيله، وأجلب عليهم بِرَجِله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً، وأَزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزّاً، فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار، وتارةً كالذُّباب ترقص وسط الدِّيار، فيا رحمة للسُّقوف والأرض من دكِّ تلك الأقدام، ويا سوأتا مِنْ أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالَّذين يزعمون أنَّهم خواصُّ الإسلام، قضوا حياتهم لذَّةً، وطرباً، واتَّخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشَّيطان أحبُّ إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوَّله إلى آخره؛ لمَّا حرَّك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وَجْداً، ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى الله زِنداً، حتَّى إذا تلا عليه قرآن الشَّيطان، وولج مزموره سمعه؛ تفجَّرت ينابيع الوَجْد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفَّقت، وعلى سائر أعضائه، فاهتزَّت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.. ولقد أحسن القائل:

تُلِيَ الْكِتَابُ فَأَطْرَقُوا لا خِيفَةً لَكِنَّهُ إِطراقُ سَاهٍ لاهِي
وَأَتَى الغِنَاءُ فَكَالْحَمِيرِ تَنَاهَقُوا وَاللهِ مَا رَقَصُوا لأَجْلِ اللهِ

دَفٌّ وَمِزْمَارٌ وَنَغْمَةُ شَادِنٍ فَمَتَى رَأَيْتَ عِبَادَةً بِمَلاهِي
ثَقُلَ الْكِتَابُ عَلَيْهِمِ لَمَّا رَأَوا تَقْبِيدَهُ بأوامرٍ وَنَوَاهي
سَمِعُوا لَهُ رَعْداً وَبَرْقاً إِذْ حَوَى زَجْراً وَتَخْوِيفاً بِفِعْلِ مَنَاهِي
وَرَأَوه أَعْظَمَ قَاطِعٍ لِلنَّفْسِ عَنْ شَهَواتِهَا يَا ذَبْحَهَا المُتَنَاهِي
وَأَتَى السَّمَاعُ مُوَافِقاً أَغْرَاضَها فَلأَجْلِ ذَاكَ غَدَا عَظِيمَ الْجَاهِ[1]

وهكذا أصبحت حياة المتصوِّفة المنحرفين في اللَّهو، والسَّخافة، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذِّكر، والسَّماع، والملاهي، وأصبحت حياتهم من أوَّلها إلى آخرها تدور حول الذِّكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السَّعي في مناكب الأرض، وطلب الرِّزق، والجهاد، وطلب العلم، ونشره، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، فكلُّها أمورٌ تشغل عن الذِّكر، وتصدُّ عنه، ومن ثمَّ ينبغي على المسلم ألا يشتغل بها، وأن يعيش حياته على الذِّكر بالسَّماع، والغناء، والرَّقص.

ودخل في عالم التصوُّف المنحرف تقديس الأشخاص الأموات منهم والأحياء، ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام عالم الخيال، وأصيب النَّاس بالوهن، والعجز، والانحطاط، واتَّسعت هوة التخلُّف والسُّقوط، وكانت أوربة الصَّليبيَّة تواصل صعودها في سلَّم الحضارة المادِّيَّة، وتعدُّ جيوشها للزَّحف على العالم الإسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام، والاتِّكال على الخوارق والكرامات.

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٥٠٦).

في الوقت الَّذي كانت فيه الأمَّة تعاني أشدَّ المعاناة من الضَّعف والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء، وتحاك لها الدَّسائس، كان كثيرٌ من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوِّفة المنحرفين الَّذين أشاعوا روح الذُّلِّ والخنوع في الأمَّة، والذِّلَّة والهوان، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثيرٌ من الطُّرق الصُّوفيَّة المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء في عرف النَّاس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولا شكَّ: أنَّ هناك بينهم بنسبة كبيرةٍ من الدَّجَّالين، والمحترفين، استغلُّوا ما للمجاذيب من مكانةٍ مقدَّسةٍ في نفوس النَّاس، فاندسوا في صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الَّذين لا لوم عليهم، ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجنِّ، فكان طبيعيًا أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخطَّطاتهم، وتحتلَّ جيوشهم أرضنا، وتُستباح بيضتنا.

ولقد حفلت الصُّوفية ببحرٍ زاخر من العقائد المنحرفة، والضَّالة، ولعل آخر العقائد ممَّا آمن بها كثيرٌ من المتصوِّفة المنحرفين عقيدة وحدة الوجود، والحلول، لقد احتضن المتصوِّفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها، وألَّفوا مؤلفاتٍ من أجلها، واعتبروها الحقيقة الَّتي كُشِفَ لهم سرُّها، وسُتِرَ عن الآخرين.

وكان تدريس كتابَي: (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكِّيَّة) لـ(ابن عربي) وغيرهما من كتب المتصوِّفة الَّتي تطفح بعقيدتَي: وحدة الوجود والحلول، هو شعار كبار العلماء من المتصوِّفة، وغيرهم، وهو المنزلة العلميَّة الَّتي لا يتبوَّؤها إلا الخاصَّة منهم، والمستوى العلمي الَّذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء[1].

---

(١) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٥٥٦).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجًا واسعًا بين المتصوِّفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة الَّتي كانت تمرُّ بها الأمَّة الإسلاميَّة، فكان كثيرٌ منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، الَّتي لا يمكن للحياة في ظلِّها أن تفسد، ويحيق الدَّمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلِّيَّة، فلا يبقى معها دينٌ ولا جهادٌ، ولا عداءٌ بين مسلمٍ وكافرٍ، فالكلُّ واحدٌ، والوجود واحدٌ؛ وإن تعددت المظاهر. نسأل الله السَّلامة في الدِّين!

وكان هناك استخفافٌ كثيرٌ منهم بالشَّرائع، وإلغاؤهم التَّكاليف، أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدِّين ونواهيه تحت مسمَّى الولاية، والحزب، والجذب، والشُّهود. ولقد كان واقع الصُّوفيَّة حجَّةً قويَّةً استندت إليها حركات التَّغريب الَّتي نخرت الدَّولة العثمانيَّة.

خامساً: نشاط الفِرق المنحرفة:

كالشيعة الاثني عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية والقاديانيَّة، والبهائيَّة، وغيرها من الفِرق الضَّالَّة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصًا مع مجيء الاستعمار الصَّليبي الَّذي طوَّق الأمَّة الإسلاميَّة، فكانوا على عادتهم دائمًا مع أعداء المسلمين عونًا لهم، وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عونٍ للتَّتار والصَّليبيِّين ضدَّ المسلمين، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة، والتَّآمر لحساب أعداء الأمَّة، وقد مرَّ بنا في هذا الكتاب دور الصَّفويَّة الاثني عشريَّة في محاربة الدَّولة العثمانيَّة

على مرِّ عصورها، وحين احتلَّ الفرنسيُّون سوريا، وانطلقت الحركات الجهاديَّة ضدَّهم كان أعضاء بعض الفرق الضالة يقاتلون جنبـًا إلى جنب مع الفرنسيِّين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[١].

أما طائفتا النصيرية والدروز: فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامي، وعونـًا للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم.

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد الشام مما حدا بـ (يوسف باشا) والي الشام أن يقود جيشـًا بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان قد خيرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من بلادهم، فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد...)[٢].

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها، وقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام، وأرسل رجلاً من خاصته اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفـًا في لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري، فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلّون ويصومون، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا

(١) انظر: الأعلام (١/ ٤٢).

(٢) انظر: حلية البشر (٣/ ١٦٠).

له أمراً، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست[١].

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم، وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكاماً ومحكومين، علماء ومتعلمين، فأين علماء السنة الذي لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين؟

إن تاريخ النصيريين تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائماً خنجراً مسموماً في جنب الأمة الإسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام.

وكان أمير الدروز بشير الشِّهابي المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمَّد علي عند احتلاله للشَّام، ممَّا سهَّل على جيش محمَّد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد التُّرك، وكان هناك مراسلاتٌ بين نابليُّون، وطائفة الشهابي عند حصار الفرنسيِّين (عكَّا)[٢].

أمَّا البهائيَّة فقد نشأت عام ١٢٦٠هـ ـ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الرُّوسي، واليهوديَّة العالميَّة، والاستعمار الإنجليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلاميَّة، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسيَّة، وقد ادَّعى البهاء المهديَّة، ثمَّ ادَّعى النُّبوَّة، ثمَّ ادعى الرُّبوبيَّة، والألوهيَّة[٣].

---

(١) انظر: خطط الشام (١/ ٢٦٠).

(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٥٧٧).

(٣) المصدر السَّابق (١/ ٥٨٩).

إِنَّ من المؤلم حقّاً تهاون الدَّولة العثمانيَّة في القضاء على تلك النِّحلة الخبيثة، وتطبيق حكم الله، وشرعه في أمثالهم.

وأمَّا القاديانية فهي نحلةٌ تنسب إِلى (غلام أحمد القادياني)، ونسبت إِلى قرية قاديان من إِقليم البنجاب في الهند (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) وهي: (حركة نشأت بتخطيطٍ من الاستعمار الإنجليزي في القارة الهنديَّة بهدف إِبعاد المسلمين عن دينهم، وعن فريضة الجهاد بشكلٍ خاصٍّ، حتَّى لا يواجهوا المستعمر باسم الإِسلام)[١].

وقد ادَّعى القاديانيُّ النُّبوَّة، ثمَّ الألوهيَّة، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام أحمد القادياني) (ميله الشَّديد للإِنجليز، وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند، وإِبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحثُّ أتباعه على نصرتهم في كلِّ مكانٍ..)[٢].

ويقول القاديانيُّ: (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البُغاة، وأن يرفعوا على هذه الدَّولة المحسنة سيوفهم، أو يعينوا أحداً في هذا الأمر، ويُعان على شيءٍ أحد من المخالفين بالقول، أو الفعل، أو الإِشارة، أو المال، أو التَّدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرامٌ قطعيٌّ، ومن أرادها؛ فقد عصى الله، ورسوله، وضلَّ ضلالاً مبيناً)[٣].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسَّرة للأديان، ص ٣٨٩.

(٢) انظر: عقيدة ختم النُّبوَّة، د. عثمان عبد المنعم، ص ٢٠٩.

(٣) انظر: عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية، د. أحمد حمدان، ص ٢٥٥.

لقد كانت تلك الفِرق مصدراً لإثارة القلاقل، والفتن، وإحداث الفوضى في داخل الدَّولة العثمانيَّة، وكذلك في تجمُّعات المسلمين كالهند، وغيرها، وكانت تلك الفرق لا تكلُّ، ولا تملُّ في تآمرها المستمرِّ مع أعداء الإسلام، وفي خيانة المسلمين في أحرج الأوقات، وأحلك الظُّروف، لقد اكتوت الأمَّة بشرور تلك الفِرق عندما ضعفت عقيدة أهل السُّنَّة في كيان الدَّولة القائمة عليها، وفي نفوس رعاياها من أهل السُّنَّة.

سادساً: غياب القيادة الرَّبَّانيَّة:

إنَّ القيادة الرَّبَّانيَّة من أسباب نهوض الأمَّة، والتَّمكين لها؛ لأنَّ قادة الأمَّة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرَّأس من جسدها، فإذا صلح القادة؛ صلحت الأمَّة، وإذا فسد القادة؛ صار هذا الفساد إلى الأمَّة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهميَّة القيادة الرَّبانيَّة في حياة الأمَّة، ولذلك حرصوا كلَّ الحرص على ألا يمكِّنوا القيادات الرَّبَّانيَّة من امتلاك نواصي الأمور، وأَزِمَّة الحكم في الأمَّة الإسلاميَّة، ففي خطة لويس التَّاسع أوصى بـ(عدم تمكين البلاد الإسلاميَّة، والعربيَّة من أن يقوم بها حاكمٌ صالحٌ) كما أوصى بـ(العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلاميَّة بالرَّشوة، والفساد، والنِّساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمَّة)[١].

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجومري وات) في (جريدة التَّايمز اللَّندنيَّة) قائلاً: (إذا وجد القائد المناسب الَّذي يتكلَّم الكلام المناسب عن الإسلام، فإنَّ من الممكن لهذا الدِّين أن يظهر كإحدى القوى السِّياسيَّة العظمى في العالم مرَّةً أخرى)[٢].

---

(١) انظر: قادة الغرب يقولون، جلال العالم، ص ٦٣.

(٢) المصدر السَّابق، ص ٢٥.

وقال المستشرق الصَّهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسةٍ نشرها عام ١٩٧٦م: (إنَّ غياب القيادة العصرية المثقَّفة: القيادة الَّتي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علمٍ، وتنظيمٍ، إنَّ غياب هذه القيادة قد قيَّدت حركة الإسلام كقوَّةٍ منتصرةٍ، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلاميَّة من أن تكون منافسًا خطيراً على السُّلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحوَّل إلى قوىً سياسيَّةٍ هائلةٍ إذا تهيَّأ لها هذا النَّوع من القيادة)[1].

إنَّ الباحث في الدَّولة العثمانيَّة يجد أنَّ القيَّادة الرَّبانيَّة كانت موجودةً في عصورها المتقدِّمة، وخصوصًا عند فتح القسطنطينيَّة، فنجد القادة الرَّبَّانيّين في المجال الجهاديِّ، والمجال المدنيِّ، ونلاحظ الصِّفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشَّرعي، والثِّقة بالله، والقدوة، والصِّدق، والكفاءة، والشَّجاعة، والمروءة، والزُّهد، وحبُّ التَّضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتَّواضع، وقبول التَّضحية، والحلم، والصبر، وعلوِّ الهمَّة، والتَّميُّز بخفَّة الرُّوح، والدُّعابة، والحزم، والإرادة القويَّة، والعدل، والاحترام المتبادل، والقدرة على حلِّ المشكلات، والقدرة على التَّعليم، وإعداد القادة، وغير ذلك من الصِّفات.

لقد قاد محمَّد الفاتح الأمَّة في زمنه قيادةً ربَّانيَّةً، وقد جرى الإيمان في قلبه، وعروقه، وانعكست ثماره على جوارحه، وتفجَّرت صفات التَّقوى في أعماله، وسكناته، وأحواله، وانتقل بدولته، وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطواتٍ ثابتةٍ، وكان العلماء الرَّبَّانيُّون هم قلب القيادة في الدَّولة، وعقلها المفكِّر،

(١) انظر: التَّمكين للأمَّة الإسلاميَّة، ص ١٨٥.

ولذلك سارت الأمَّة والدَّولة العثمانيَّة على بصيرةٍ، وهدىً، وعلمٍ[١]، وأمَّا في العصور المتأخِّرة؛ فإن الباحث يجد انحرافاً خطيراً في القيادة العثمانيَّة على المستوى العسكريِّ، والعلميِّ، فمثلاً: وصل إلى الصَّدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، وولَّى ولايةَ مصر محمَّد علي باشا العلماءُ والفقهاءُ، وإنَّ المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجلٍ مثل (محمَّد علي باشا) ليتولَّى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكريٍّ جاهلٍ مغرورٍ، ويبدو أنَّ العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم، وتهيَّبوا النُّزول إلى الميدان، وتحمُّل المسؤوليَّات العظام؛ لأنَّهم قد ألفوا الرُّكون إلى حلقات العلم، وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمَّات ومسؤوليَّات.

ومن الأمور المحزنة الَّتي كانت تقع بين العلماء حدوث المنافسات، والضَّغائن بينهم، واستعانة بعضهم بالحكَّام، واستعداء السُّلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك؛ فإنَّها تسنح الفرصة للطُّغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صفِّ العلماء، كالخلاف الَّذي وقع بين الشَّيخ (عبد الله الشِّرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتَّب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمَّد علي باشا إلى الشَّيخ الشِّرقاوي بلزوم داره، وعدم الخروج منها، ولا حتَّى إلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمورٌ، وضغائن، ومنافساتٌ بينه وبين إخوته.. فأغروا به الباشا، ففعل به ما ذُكر، فامتثل الأمر، ولم يجد ناصراً، وأهمل أمره)[٢].

---

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصَّلابي، ص ٣٢٨.

(٢) انظر: عجائب الآثار (٣/ ١٣٤).

ويصف الشَّيخ مصطفى صبري حال العلماء الَّذين ابتعدوا عن أمور الحكم، ونصح الحكام، وما هي نظرة العلمانيِّين للعلماء، فقال: (والَّذين جرَّدوا الدِّين في ديارنا عن السِّياسة كانوا هم وإِخوانهم لا يرون الاشتغال بالسِّياسة لعلماء الدِّين، بحجَّة أنَّه لا ينبغي لهم، وينقص من كرامتهم. ومرادهم حكر السِّياسة، وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبِّلون أيديهم، ويخيِّلون لهم بذلك أنَّهم محترمون عندهم، ثمَّ يفعلون ما يشاؤون لدين النَّاس، ودنياهم، محرَّرين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمرٌ بمعروفٍ، أو نهيٌ عن منكرٍ إلا ما بَعُدَ من فضول اللِّسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإِيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السِّياسة، كأنَّهم تواطؤوا مع كلِّ السَّاسة، صالحيهم، وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم، ويكون لهم منهم رواتب الإِنعام، والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السُّلطة، وعن كل نفوذٍ سياسيٍّ..)[1].

لقد أخلد العلماء في أواخر الدَّولة العثمانيَّة إِلى الأرض، واتَّبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوةً سيِّئةً للجماهير الَّتي ترمقهم، وترقبهم عن قربٍ، ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدُّنيا، وأترفوا فيها، وكمِّمت أفواههم بدون سيفٍ، أو سوطٍ، ولكن بإِغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات، والحكَّام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتَّبات الجزيلة، والمزايا العظيمة، الَّتي تكون كفيلةً بإِسكات أصواتهم، وكبح ثورتهم، واعتراضهم[2].

(١) انظر: الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٨٤).

(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (١/ ٦٠٥).

(لقد كان علماء الدِّين دائمًا في تاريخ هذه الأمَّة هم قادتُها، وموجهوها، هم ملجؤها كذلك؛ إذا حزبهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتَّجه إليهم؛ لتتلقَّى علم الدِّين منهم، وتتَّجه إليهم؛ ليشيروا عليها في أمورها الهامَّة، وتتَّجه إليهم إذا وقع عليهم ظلمٌ من الحكَّام، والولاة؛ ليسعوا إلى رفع الظُّلم عنهم، بتذكير أولئك الحكَّام، والولاة بربِّهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر.. وكان العلماء يُضطهدون من قبل ذوي السُّلطان أحيانًا، ويُلقون في السُّجون أحيانًا، ويُؤذون في أبدانهم، وأموالهم، وكراماتهم أحيانًا، ولكنَّهم يصمدون لهذا، تقديراً لمسؤوليَّاتهم أمام الله تعالى.

وكما كان العلماء هم قادة الأمَّة ومرشدوها في الأمور السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والفكريَّة والرُّوحيَّة، وكانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلَّما حدث على الأمَّة عدوان.. يذكِّرونها بالله واليوم الآخر، وبالجنَّة الَّتي تنتظر المجاهدين الصَّادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقودون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمَّة علماء الدِّين، والدِّين حيٌّ في النُّفوس.. وفي التَّاريخ نماذج عديدةٌ لعلماء أرضوا ربَّهم، وأدَّوا أمانتهم، وجاهدوا في الله حقَّ جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل الله، فما ضعفوا، وما استكانوا.. فأين كان العلماء في تلك الفترة الَّتي نحن بصددها من التَّاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الَّذي عهدتهم الأمَّة فيه إلى عهد ليس ببعيدٍ..؟

هل كانوا حماة الأمَّة من العدوان؟ وحماتها من الظُّلم الواقع عليهم من ذوي السُّلطان؟

هل كانوا هم الَّذين يطالبون للأمَّة بحقوقها السِّياسيَّة، وحقوقها الاجتماعيَّة، وحقوقها الاقتصاديَّة؟

هل كانوا هم الَّذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقومون إلى الإمام الجائر، فيأمرونه، وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثيرٌ منهم قد استعبدوا أنفسهم للسُّلطان، ومشوا في ركابه، يتملَّقونه، ويباركون مظالمه، فيمدُّونه في الغيِّ، بينما البقيَّة الصَّالحة منهم قد قبعت في بيوتها، أو انزوت في الدَّرس والكتاب، تحسب أنَّ مهمَّتها قد انتهت؛ إذا لقنت النَّاس العلم.. وما نريد أن نظلمهم، فقد كان منهم ـ ولا شكَّ ـ من صدع بكلمة الحقِّ، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه حين أحسَّ: أنَّه يستعبده لأولي السُّلطان، أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنَّهم قلَّةٌ قليلةٌ بين الكثرة الغالبة الَّتي راحت تلهث وراء المتاع الأرضيِّ، أو تقبع داخل الدَّرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور..)[1].

وكان من الطَّبيعيِّ أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في هذه الفترة بالجمود، والتحجُّر نتيجةً لعدَّة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتواليَّة، ومن هذه العوامل:

1ـ الاهتمام بالمختصرات:

قام بعض العلماء باختصار المؤلَّفات الطَّويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم؛ حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاَّب، حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم، (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٣٢٧.

مؤلَّفاتهم في متونٍ موجزةٍ، ويأخذون هذه الأقوال مجرَّدةً من أدلَّتها من الكتاب والسُّنَّة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها)[١].

يقول الشَّيخ عبد الحميد بن باديس ناقداً للطَّريقة في تدريس الفقه: (واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهيَّة مجرَّدةً بلا نظرٍ، جافةً بلا حكمةٍ، وراء أسوارٍ من الألفاظ المختصرة تفني الأعمار قبل الوصول إليها)[٢].

ويذكر الإمام الشَّوكاني اهتمام النَّاس في عصره بهذه المختصرات، والخطورة الَّتي تنطوي على ذلك، فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم، ونهاية مقاصدهم العلم بمختصرٍ من مختصرات الفقه؛ الَّتي هي مشتملةٌ على ما هو من علم الرَّأي والرِّواية، والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأسًا من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسُّنَّة، وعلمهما جهلاً شديداً؛ لأنَّه تقرَّر عندهم: أنَّ حكم الشَّريعة منحصرٌ في ذلك المختصر، وأنَّ ما عداه فضلةٌ أو فضول، فاشتدَّ شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عمَّا عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً)[٣].

2 ـ الشُّروح، والحواشي، والتَّقريرات:

يقول الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الَّذي درس ودرَّس الكثير من هذه الشُّروح، والحواشي في مختلف العلوم الدِّينيَّة، واللُّغويَّة منتقداً لها: (مع أنَّ فيها جميعًا

(١) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٥٦.
(٢) انظر: ابن باديس.. حياته وآثاره (١/ ١٠٨).
(٣) انظر: أدب الطَّلب، ص ٥٩.

ما لا تدعو إِليه الحاجة بل غالبها كذلك، ولا سيَّما تلك التَّدقيقات الَّتي في شروحها، وحواشيها، فإِنَّها عن علم الكتاب والسُّنَّة بمعزلٍ)[١].

لقد كانت المؤلَّفات على كثرتها من شروحٍ، وحواشٍ وغير ذلك من الأغلال الَّتي كبَّلت العقول، وأدَّت إِلى جمود العلوم عبر قرون عديدةٍ، وكانت توجد بعض الحواشي والشُّروح المفيدة، ولكنَّها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التَّعليم في تلك الفترة بعيدةً كلَّ البعد عن منهج أهل السُّنَّة والجماعة، وكانت المعاهد الإِسلاميَّة كلُّها تقريباً ـ بعيدةً عن ذلك المنهج الإِسلاميِّ الأصيل.

فالأزهر مثلاً ـ وهو المعهد الإِسلاميُّ الكبير، والجامعة العتيقة ـ كان مركزاً لعلوم المتكلِّمين البعيدة عن روح الإِسلام، ومبادئه، يقول أحد الدَّارسين في الأزهر عن علم الكلام:

(من العلوم الَّتي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإِطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدَّة سنواتٍ، ولكنِّي لم أعرف منه شيئاً عن الله ذا بالٍ، وإِنَّما انغمست في اصطلاحاتٍ زادت تفكيري غموضاً، واضطراباً حتَّى تمنَّيت إِيمان العوام)[٢].

لقد أصاب المناهج الإِسلاميَّة في تلك الفترة بالإِضافة إِلى الجمود موجةٌ من الجفاف؛ حيث: (إِنَّ العصور المتأخِّرة بَعُدت بعداً كبيراً عن روح الإِسلام، واهتمَّت بالجسم، والمادَّة؛ حتَّى أصبحت الدراسات الإِسلاميَّة دراسةً لا حياة

(١) انظر: البدر الطَّالع بمحاسن ما بعد القرن السَّابع (١/ ٨٦).
(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٤٢ ـ ٤٣).

فيها، ولا روح، وجرت عدوى هذه الدِّراسات إِلى جميع أبواب الفقه، حتَّى الأبواب الَّتي كانت يجب أن تكون دراسة الرُّوح أهمَّ عنصرٍ فيها)[١].

3. الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلميَّة في تلك الفترة التَّساهل في منح الإِجازات؛ فكانت تُعطى في العصر المتأخِّر للدولة العثمانيَّة جزافـًا؛ إِذ كان يكفي أن يقرأ الطَّالب أوائل كتاب، أو كتابين ممَّا يدرِّسه الأستاذ؛ حتَّى ينال إِجازة بجميع مرويَّاته، وكثيراً ما أُعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة. فكان العالم في القاهرة يبعث إِلى طالب في مكَّة بالإِجازة دون أن يراه، أو يختبره[٢].

فكان ذلك التَّساهل من الأمور الَّتي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التَّساهل في منح الإِجازات عاملاً مهمّـًا من عوامل انحدار المستوى التَّعليمي، وضعف العلوم الشَّرعيَّة؛ حيث أضحى الهدف عند كثيرٍ من المنتسبين إِلى العلم حيازة أكبر عددٍ من هذه الإِجازات الصُّوريَّة؛ الَّتي لم يكن لها في كثيرٍ من الأحيان أيُّ رصيدٍ علميٍّ في الواقع[٣].

4. وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلميَّة في أواخر الدَّولة العثمانيَّة بالوراثة في الأمور العلميَّة المهمَّة كالتَّدريس والفتوى والإِمامة وحتَّى القضاء، فقد صارت تلك

---

(١) انظر: المجتمع الإِسلاميُّ المعاصر، ص ٢١٠.

(٢) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٥٩).

(٣) المصدر السَّابق (٢/ ٦٤).

المناصب تورث بموت من كانوا يتولَّونها تماماً كما تورث الدُّور والضِّياع والأموال، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخٌ يدرَّس عليه، فلا يوارى التراب حتَّى ينتقل منصبه، وكرسيُّه إلى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه، وقد يكون الوارث قليل الفهم مُزْجَى البضاعة في العلم، ولكن لا بدَّ للتَّصدر للإقراء، والتَّدريس، وعدم إخلاء الكرسيِّ؛ الَّذي قد يتربَّع عليه غريبٌ عن أهل المتوفَّى؛ حتَّى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الَّذي رحل عنه[١].

يقول المؤرِّخ التُّركيُّ أحمد جودت المتوفَّى عام ١٣١٢هـ[٢] متحدِّثاً عن تلك الظَّاهرة السَّيِّئة في الدَّولة العثمانيَّة: (وصار أبناء الصُّدور، والقضاة ينالون وظيفة التَّدريس، وهم أحداثٌ، وأطفالٌ، ويترقَّون لذلك في الوظائف، حتَّى إنَّ الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولويَّة[٣] وما طرَّ شاربه، ولا اخضرَّ عِذاره. وكان ينال التَّدريس أيضاً كلُّ ذي وجاهةٍ واعتبارٍ، حتَّى صارت المراتب، والمناصب العلميَّة تؤخذ بالإرث، فسهل على الوزراء، ورجال الدَّولة تقليدها لأبنائهم، وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء، وصار الجهَّال يموج بعضهم في بعضٍ، والتبس الأمر، وفسد أيَّ فساد)[٤].

ويقول (محمَّد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلميَّة في الشَّام، وتردِّيها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة «خير الأب للابن».

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) كان وزيراً في البلاط العثماني، وكتب تاريخ جودت بالتُّركيَّة في ١٢ مجلداً.

(٣) المولويَّة: ثاني رتبةٍ في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.

(٤) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلمية (٢/ ٦٨).

وكان المفتي «أبو السُّعود» من مشايخ الإسلام في الآستانة أوَّل من ابتدعها، وأخرجها للنَّاس، فأصبح التَّدريس، والتَّولية، والخطابة، والإمامة، وغيرها من المسالك الدِّينية توسد إلى الجهلة بدعوى: أنَّ آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم، ومناصبهم، وإن كانوا جهلةً، كما ورثوا حوانيتهم، وعقارهم، وفرشهم، وكتبهم، بل بلغت الحال بالدَّولة إذ ذاك أن كانت تولِّي القضاء الأميِّين، وكم من أميٍّ غدا في «دمشق» و«حلب» و«القدس» و«بيروت» قاضي القضاة، أمَّا في الأقاليم، فربما كان الأميُّون أكثر من غيرهم..)[1].

لقد كانت لتلك العادة السَّيِّئة آثارٌ وخيمةٌ في انحدار مستوى التَّعليم، وضعف الحياة العلميَّة عند المسلمين، وذلك بتوارث تلك المناصب الدِّينية، وحكرها في أسرٍ معيَّنةٍ، وبالتَّالي أثَّرت تلك العادة في إيجاد علماء ربَّانيِّين متجرِّدين لدين الله تعالى همُّهم إحقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدِّين.

سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد:

في أواخر الدَّولة العثمانيَّة أصبحت الدَّعوى بفتح باب الاجتهاد تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلِّدين، والجامدين إلى حدِّ الكفر، وكان من التُّهم الَّتي وجَّهها خصوم الدَّعوة السَّلفيَّة إلى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمةً شديدةً في ذلك الزَّمن، مع أنَّ أحداً منهم لم يقل بذلك، وكانت الدَّعوة إلى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصِّبون على مرِّ العصور، وأصبح حرصهم في أواخر الدَّولة العثمانيَّة ظاهراً، ونافحوا من أجل عدم فتحه،

(١) انظر: خطط الشَّام (٣/ ٧٠).

ومقاومة كلِّ من يحوم حوله، ممَّا شجع المتغرِّبين بالسَّعي الدَّؤوب لاستيراد المبادئ والنُّظم من أوربة، ولقد ترتَّب على إغلاق باب الاجتهاد آثارٌ خطيرةٌ لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا.

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته.. فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة، وتتوقف عن النموِّ؛ لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها. وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، تخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة؛ لأن هذا الظل لم يمدَّ بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معًا، الواحد تلو الآخر.. الجمود أوَّلاً، ثمَّ الخروج بعد ذلك من دائرة الشَّريعة[1].

لقد عانت الأمَّة من قفل باب الاجتهاد، وكانت الدَّولة العثمانيَّة في أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقَّه، وكانت عجلة الحياة أسرع، وأقوى من الجامدين، والمقلِّدين الَّذين ردُّوا كلَّ جديدٍ، وخرج الأمر من أيديهم، (وهكذا توقَّفت الحركة العقليَّة عند المسلمين إزاء كلِّ جديدٍ تلده الحياة، والحياة ولودٌ، لا تتوقَّف عن الولادة أبداً، فهي تلد كلَّ يومٍ جديداً لم تكن تعرفه الإنسانيَّة من قبل.. وكان من هذا أن مضى النَّاس ـ من غير المسلمين ـ يواجهون كلَّ جديدٍ، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً.. وهكذا سار النَّاس ـ من غير المسلمين ـ قدمًا في الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم؛ الَّذي كان عليه

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٩.

الآباء، والأجداد من بضعة قرون)[١]. واستمرَّ التَّعصُّب المذهبي في إِضعاف المستوى التَّعليميِّ، وانحدار العلوم، وجمودها، وتكبيل العقول، والأفهام، والحجر عليها. بالإِضافة إِلى ما تسبَّب فيه من تفريق كلمة المسلمين، وإِفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشِّقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، وبعد أن تحزَّبوا طوائف وجماعاتٍ، كلُّ طائفةٍ تناصر مذهبها، وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصُّب، وعمَّ الأقطار الإِسلاميَّة، ولم يسلم منه قطرٌ ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميدانًا رحبًا للصِّراعات المذهبيَّة خصوصًا بين الشَّوافع، والأحناف، وذلك من أجل التَّنافس الشَّديد على مشيخة الأزهر[٢].

إِنَّ العصبية المذهبيَّة أوجدت حواجز كثيفةً بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإِسلاميَّة اجتماعيًّا وسياسيًا، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإِسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإِسلام[٣].

لقد كان التعصُّب المذهبي منحرفًا عن منهج الله تعالى، وزاد هذا الانحراف عمقًا في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصَّفِّ الإِسلامي ممَّا كان له أعظم الأثر في ضعف الدَّولة العثمانيَّة، وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الدَّاخلية في الوقت الَّذي كانت المؤامرات قد أحاطت بها، وشرع الصَّليبيُّون في الإِجهاز على الرَّجل المريض.

---

(١) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتَّب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص ١٤٤.

(٢) انظر: عجائب الآثار (٢/ ٢٤٢).

(٣) انظر: الانحرافات العقديَّة والعلميَّة (٢/ ٨٦).

ثامناً: انتشار الظُّلم في الدَّولة:

إنَّ الظُّلم في الدَّولة كالمرض في الإنسان يعجِّل في موته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له وهو مريضٌ، وبانتهاء هذه المدَّة يحين أجل موته، فكذلك الظُّلم في الدَّولة يعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثارٍ مدمِّرةٍ تؤدِّي إلى هلاكها، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله، هي الأجل المقدَّر لها، أي: الَّذي قدَّره الله لها بموجب سنَّته العامَّة الَّتي وضعها لآجال الأمم بناءً على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظُّلم؛ الَّتي يظهر أثرها، وهو هلاكها بعد مضيِّ مدَّةٍ محدَّدةٍ يعلمها الله[١]. قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤]. قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: ولكلِّ أمَّةٍ من الأمم الهالكة أجلٌ؛ أي: وقتٌ معيَّنٌ مضروبٌ لاستئصالهم[٢]. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكَّداً، ولكن وقت حلوله مجهولٌ لنا؛ أي: أنَّنا نعلم يقيناً أنَّ الأمَّة الظَّالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنَّة الله تعالى في الظُّلم، والظَّالمين، ولكنَّنا لا نعرف وقت هلاكها بالضَّبط، فلا يمكن لأحدٍ أن يحدِّد الأيَّام ولا السِّنين، وهو محدَّدٌ عند الله تعالى[٣].

إنَّ سُنَّة الله مطَّردةٌ في هلاك الأمم الظَّالمة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ

(١) انظر: السُّنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، ص ١٢١.
(٢) انظر: تفسير الآلوسي (٨/ ١١٢).
(٣) انظر: السُّنن الإلهيَّة، ص ١٢١.

ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠-١٠٢].

إنَّ الآية الكريمة تبيِّن أنَّ عذاب الله ليس مقتصراً على من تقدَّم من الأمم الظَّالمة، بل إنَّ سنَّته تعالى في أخذ كلِّ الظَّالمين سنَّةٌ واحدةٌ، فلا ينبغي أن يظنَّ أحدٌ أنَّ هذا الهلاك مقصورٌ على أولئك الظَّلمة السَّابقين؛ لأنَّ الله تعالى لمَّا حكى أحوالهم؛ قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾. فبيَّن الله تعالى أنَّ كلَّ من شارك أولئك المتقدِّمين في أفعالهم؛ الَّتي أدَّت إلى هلاكهم؛ فلا بدَّ أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشَّديد؛ فالآية تحذِّر من وخامة الظُّلم. إنَّ الدَّولة الكافرة قد تكون عادلةً بمعنى أنَّ حكامها لا يظلمون النَّاس، والنَّاس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدَّولة مع كفرها تبقى؛ إذ ليس من سنَّته تعالى إهلاك الدَّولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضمَّ إلى كفرها ظلم حكَّامها للرَّعيَّة، وتظالم النَّاس فيما بينهم[1] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

قال الإمام الرَّازي في تفسيره: (إنَّ المراد من الظُّلم في هذه الآية الشِّرك. والمعنى: أنَّ الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين؛ إذ كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم بعضاً على الصَّلاح، وعدم الفساد)[2].

---

(١) انظر: السُّنن الإلهية، ص ١٢٢.

(٢) انظر: تفسير الرازي (١٨/ ١٦).

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى ﴿بِظُلْمٍ﴾: بشركٍ، وكفرٍ ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية: إنَّ الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده؛ حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال، والميزان، وقوم لوطٍ باللِّواط[١].

قال ابن تيميَّة في هلاك الدَّولة الظَّالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور النَّاس إنَّما تستقيم مع العدل؛ الَّذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر ممَّا تستقيم مع الظلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثمٍ، ولهذا قيل: إنَّ الله يقيم الدَّولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا يقيم الظَّالمة وإن كانت مسلمةً، ويقال: الدُّنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وذلك: أنَّ العدل نظام كلِّ شيءٍ، فإذا أقيم أمر الدُّنيا بالعدل؛ قامت، وإن لم تقم بالعدل؛ لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[٢].

لقد قام بعض الباشوات بأفعالٍ قبيحةٍ، وسفكوا الدِّماء، واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السُّلطان مراد الثَّالث، وكان أمير الأمراء في دياربكرٍ بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها، وأظهر من أنواع الظُّلم أشياء مستكرهةً جدّاً، منها الاعتداء على الأعراض ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة، ولمَّا وصل الأمر للسُّلطان، وعقد مجلس القضاء، وهاب النَّاس أن يشهدوا عليه، لم يستطع القاضي أن يدقِّق في الدَّعوة، لأنَّ أخته كانت

(١) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١١٤).

(٢) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر لابن تيميَّة، ص ٤٠.

عند السُّلطان مراد مقبولةٌ جدّاً، وانصرف خصماؤه، وقرَّره السُّلطان في دياربكرٍ، فذهب إليها ناوياً على إهلاك كلِّ من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب، ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد، وقاموا عليه قومة رجلٍ واحدٍ، فتحصَّن في القلعة، وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتَّى قتل منهم خلقاً كثيراً[1].

وما قام به الباشا محمَّد علي من ظلم أهل مصر وأهل الشَّام والحجاز معروفٌ، وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد اشتدَّ ظلم الأتراك للعرب والأكراد والألبان مع مجيء الاتِّحاد والتَّرقي للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم النَّاس في داخل تركيا وخارجها، وقد ذكرنا ما تعرَّض له السُّلطان عبد الحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم؛ فجرت فيهم سنَّة الله الَّتي لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ولا تجامل، فانتقم من الظَّالمين، وجعل بأسهم فيما بينهم، وزالت دولة الخلافة العثمانيَّة من الوجود.

تاسعاً: التَّرف والانغماس في الشَّهوات:

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أراد بالَّذين ظلموا: تاركي النَّهي عن المنكرات؛ أي: لم يهتمُّوا بما هو ركنٌ عظيمٌ من أركان الدِّين، وهو الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وإنَّما اهتمُّوا بالتَّنعُّم، والتَّرف،

(١) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/ ٩١٦ ـ ٩١٧).

والانغماس في الشَّهوات، والتَّطلُّع إلى الزَّعامة، والحفاظ عليها والسَّعي لها، وطلب أسباب العيش الهنيء[١].

وقد مضت سنَّة الله في المترفين الَّذين أبطرتهم النِّعمة، وابتعدوا عن شرع الله تعالى بالهلاك والعذاب.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١-١٣].

ومن سنَّة الله تعالى جعل هلاك الأمَّة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاء في تفسيرها: (وإذا دنا وقت هلاكها؛ أمرنا بالطَّاعة مترفيها، أي: متنعميها، وجبَّاريها، وملوكها، ففسقوا فيها، فحقَّ عليها القول، فأهلكناها. وإنَّما خصَّ الله تعالى المترفين بالذِّكر مع توجُّه الأمر بالطَّاعة إلى الجميع؛ لأنَّهم أئمَّة الفسق، ورؤساء الضَّلال، وما وقع من سوئهم إنَّما وقع باتِّباعهم، وإغوائهم، فكان توجُّه الأمر إليهم آكد)[٢].

وحدث في زمن السُّلطان محمَّد بن إبراهيم: (زُيِّنت دار الخلافة ثلاثة أيَّام، وكان السلطان محمَّد؛ إذ ذاك ببلدة سلستره بروم إيلي، فكتب إلى قائمقام الوزير بالقسطنطينيَّة عبدي باشا النيشاني: إنه يريد القدوم إلى دار المملكة، وإنَّه لم يتَّفق

(١) انظر: السُّنن الإلهيَّة في الأمم، والجماعات، والأفراد، ص ١٨٦.
(٢) انظر تفسير الآلوسي (١٥/ ٤٢).

له رؤية زينةٍ بها مدَّة عمره، وأمره بالنِّداء لتهيئة زينةٍ أخرى إذا قدم، فوقع النِّداء قبل قدوم السُّلطان بأربعين يومـًا، وتهيَّأ النَّاس للزِّينة، ثمَّ قدم السُّلطان، فشرعوا في التَّزيين، وبذلوا جهدهم في التأنُّق فيها، واتَّفق أهل العصر على أنَّه لم يقع مثل هذه الزِّينة في دَوْرٍ من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينيَّة وشاهدتها، ولم يبق شيءٌ من دواعي الطَّرب إلا صُرفت إليه الهمم، ووجِّهت إليه البواعث، واستغرق النَّاس في اللَّذة والسُّرور، واستوعب جميع آلات النَّشاط، والحبور، وفشت المناهي، وعلمت العقلاء أنَّ هذا الأمر كان غلطـًا، وأن ارتكابه كان جرمـًا عظيمـًا، وما أحسب ذلك إلا نهاية السَّلطنة، وخاتمة كتاب السَّعادة والميمنة، ثمَّ طرأ الانحطاط، وشوهد النُّقصان، وتبدل الرِّبح بعدها بالخسران..)[1].

وفي سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السُّلطان مراد بن سليم الثَّاني بختان ولده السُّلطان محمَّد، ووضع لذلك فرحـًا لم يقع في زمن أحدٍ من الخلفاء والملوك، وامتدَّت الولائم والفرحة واللَّهو والطَّرب مدَّة خمسةٍ وأربعين يومـًا، وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلَّة «آت ميدان» وأغدق النِّعم العظيمة، ورأيت في تاريخ الكبريِّ: أنَّه جعل صواني صغاراً من ذهبٍ وفضَّةٍ، وملأ الذَّهب بالفضَّة، والفضَّة بالذَّهب، وألقى ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان[2].

وهذا انحرافٌ خطيرٌ عن المنهج الَّذي سارت عليه الدَّولة في زمن قوَّتها، وصولتها، وتمكينها، وكانت من وصايا محمَّد الفاتح لولي عهده (واحرس

(١) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/ ١١٦٣ ـ ١١٦٤).
(٢) المصدر السَّابق (٢/ ١١٥٤ ـ ١١٥٥).

أموال بيت المال من أن تتبدَّد)، (ولا تصرف أموال الدَّولة في ترفٍ، أو لهوٍ، وأكثر من قدر اللُّزوم؛ فإنَّ ذلك من أعظم أسباب الهلاك)، فكان من الطَّبيعي بعد هذا الانحراف الخطير، والانغماس في التَّرف، واللَّهو، والشَّهوات أن تزول الدَّولة بعد ضياع مقوِّمات بقائها.

عاشراً: الاختلاف والفرقة:

إنَّ سنَّة الله تعالى ماضيةٌ في الأمم، والشُّعوب لا تتبدَّل ولا تتغيَّر ولا تجامل، وجعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من أسباب هلاك الأمم الاختلاف، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإنَّ من كان قبلكم اختلفوا، فهلكوا» وفي رواية: «فأهلكوا»[١].

وعند ابن حبَّان، والحاكم عن ابن مسعودٍ: «فإنَّما أهلك من كان قبلكم الاختلاف».

قال ابن حجر العسقلانيُّ: وفي الحديث والَّذي قبله الحضُّ على الجماعة، والألفة، والتَّحذير من الفرقة، والاختلاف[٢].

وقال ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأمرنا الله تعالى بالاجتماع، والائتلاف، ونهانا عن التفرُّق، والاختلاف)[٣].

والاختلاف المهلك للأمَّة هو الاختلاف المذموم، وهو الَّذي يؤدِّي إلى تفريقها، وتشتُّتها، وانعدام التناصر فيما بين المختلفين، كلُّ طرفٍ يعتقد ببطلان ما عند الطَّرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[٤].

---

(١) انظر: صحيح البخاريِّ بشرح العسقلاني (٩/ ١٠١ ـ ١٠٢).
(٢) المصدر السَّابق (٩/ ١٠٢).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/ ١١٦).
(٤) انظر: السُّنن الإلهية، ص ١٣٩.

(وإِنَّما كان الاختلاف علَّةً لهلاك الأمَّة كما جاء في حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنَّ الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فِرقًا شتى، ممَّا يضعف الأمة؛ لأنَّ قوَّتها، وهي مجتمعةٌ أكبر من قوَّتها وهي متفرِّقةٌ، وهذا الضَّعف العامُّ الَّذي يصيب الأمَّة بمجموعها يجرِّئ العدوَّ عليها، فيطمع فيها جميعها، ويحتلُّ أراضيها، ويستولي عليها، ويستعبدها، ويمسخ شخصيَّتها، وفي ذلك انقراضها وهلاكها)[1].

إِنَّ من الدُّروس المهمَّة في هذه الدِّراسة التَّاريخيَّة: أنَّ توقِّي الهلاك بتوقِّي الاختلاف المذموم؛ لأنَّ الاختلاف كان سببًا من الأسباب في ضياع الدَّولة العثمانيَّة، وهلاكها، واندثارها. وإِنَّ من أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإِسلاميِّين القائمين بواجب الدَّعوة إِلى الله تعالى، وهذا الخلاف يؤدِّي إِلى ضعف الأمَّة؛ إِذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشَّيخ عبد الكريم زيدان: (والاختلاف كما يُضعف الأمَّة، ويهلكها يُضعف الجماعة المسلمة الَّتي تنهض بواجب الدَّعوة إِلى الله، ثمَّ يهلكها، لهذا كان شرُّ ما تُبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها، بحيث يجعلها فِرقًا شتَّى، بحيث ترى كلُّ فرقةٍ أنَّها على حقٍّ وصوابٍ، وأنَّ غيرها على خطأٍ وضلالٍ، وتعتقد كلُّ فرقةٍ أنَّها هي الَّتي تعمل لمصلحة الدَّعوة، وهيهات أن تكون الفرقة، والتَّشتُّت، والاختلاف المذموم في مصلحة الدَّعوة، أو أن مصلحة الدَّعوة تأتي عن طريق التَّفريق! ولكنَّ الشَّيطان هو الَّذي يزيِّن الفرقة، والتَّفريق

(١) المصدر السَّابق نفسه.

في أعين المتفرِّقين المختلفين، فيجعلهم يعتقدون أنَّ اختلافهم، وتفرُّقهم في مصلحة الدَّعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حدِّ إضعاف الجماعة، وإنَّما يضعف تأثيرها في النَّاس، وتجعل المغرضين ينفثون باطلهم في النَّاس، ويقولون: جماعة سوء تأمر النَّاس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة، والاجتماع، وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه؛ إذ هي متفرقةٌ مختلفةٌ فيما بينها، كلُّ فرقةٍ تعيب الأخرى، وتدَّعي أنَّها وحدها على الحقِّ. ثمَّ يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع، ثمَّ اضمحلالها، واندثارها، وقيام جماعاتٍ جديدةٍ مكانها، هي فرق المنفصلين عنها. ووقائع التَّاريخ البعيد، والقريب تؤيِّد ما نقول)[١].

لقد ابتليت الدَّولة العثمانيَّة خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف، والتَّفريق بين الزُّعماء والسَّلاطين، فقد حاول بعض الحكَّام المحلِّيِّين الاستقلال الذَّاتي عن الحكومة المركزيَّة بإطالة فترة حكمهم، ومحاولة تأسيس أسرٍ محلِّيَّة (المماليك في العراق، آل العظم في سورية، المعنيُّون، والشِّهابيُّون في لبنان، ومحمَّد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزَّار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القراماليُّون في ليبيا)[٢] وهذا الصِّراع بين الحكَّام المحلِّيِّين، والدَّولة العثمانيَّة ساهم في إضعافها، ثمَّ زوالها وسقوطها.

---

(١) انظر: السُّنن الإلهيَّة، ص ١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) انظر: العالم العربي في التَّاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص ٩٤.

ولقد ذكر بعض المؤرِّخين أسباب السُّقوط، وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السُّقوط، وبين الآثار المترتِّبة على الابتعاد عن شرع الله تعالى. إنَّ الحديث عن الضَّعف السِّياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ، وكيفية القضاء على هذا الضَّعف، والحديث عن الاستعمار، والغزو الفكري، والتَّنصير، وكيفيَّة مقاومتها لا يزيد على محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمَّة الَّتي أصيبت بالخواء العقديِّ، وما لم يتمَّ محاربة الأسباب الحقيقيَّة، والقضاء عليها؛ فإنَّه لا يمكن بحالٍ من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إنَّ الآثار كانت متشابكةً، ومتداخلةً، يؤثِّر كلٌّ منها في الآخر تأثيراً عكسيّاً، فالضَّعف السِّياسيُّ مثلاً يؤثِّر في الضَّعف الاقتصاديِّ، ويتأثَّر به، وهكذا.

إنَّ كثيراً من المحاولات الَّتي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإسلام، وعزَّته، وقوَّته ركَّزت على الآثار، ولم تعالج الأسباب الحقيقيَّة الَّتي كانت خلف ضياع الدَّولة العثمانيَّة، وضعف الأمَّة، وانحطاطها.

إنَّ جهود النَّصارى، واليهود، والعلمانيَّة ما كانت لتؤثِّر في الدَّولة العثمانيَّة إلا بعد أن انحرفت عن شرع الله، وفقدت شروط التَّمكين، وأهملت أسبابه الماديَّة، والمعنويَّة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

نتائج البحث

١ ـ تولَّى حكم الدَّولة العثمانيَّة بعد مراد الخامس السُّلطان عبد الحميد الثَّاني في عام ١٢٩٣هـ، وضغط عليه من قبل مدحت باشا، فأعلن الدُّستور، ومارس الوزراء استبدادهم، واشتدَّت سياستهم التغريبيَّة بقيادة جمعية العثمانيِّين الجدد، والَّتي كانت تضمُّ النُّخبة المثقَّفة الَّتي تأثَّرت بالغرب، وعندما حانت الفرصة للسُّلطان عبد الحميد ألغى الدُّستور، وشرَّد زعماء التَّغريب، وعمل على إِضعاف سلطاتهم، وشرع في إِصلاح الدَّولة وفق التَّعاليم الإِسلاميَّة، وحرص على تطبيق الشَّريعة الإِسلاميَّة.

٢ ـ عمل السُّلطان عبد الحميد على تشكيل جهازٍ استخباراتيٍّ قويٍّ لحماية الدَّولة من الدَّاخل، وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج، وأخمد ثوراتٍ في البلقان، وتمرُّداتٍ داخليَّةٍ، وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمَّة عند السُّلطان في القضاء على التمرُّدات الدَّاخلية في حينها.

٣ ـ دخلت الدَّولة العثمانيَّة في حربٍ ضروسٍ مع روسيا، وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة «سان ستفانو» معها، ثمَّ بعد ذلك كان مؤتمر برلين في ألمانيا.

٤ ـ ظهرت فكرة الجامعة الإِسلاميَّة في معترك السِّياسة في زمن السُّلطان عبد الحميد الَّذي اهتمَّ بهذه الفكرة لدعم أواصر الأخوَّة بين المسلمين في كلِّ مكانٍ؛ حتّى تستطيع الأمَّة أن تقف ضدَّ الأطماع الصَّليبيَّة.

٥ ـ شرع السُّلطان عبد الحميد في تنفيذ مخطَّطه للوصول إلى الجامعة الإسلاميَّة بواسطة وسائل متعددةٍ، منها: الاتِّصال بالدُّعاة، وتنظيم الطُّرق الصُّوفيَّة، والعمل على تعريب الدَّولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خطِّ سكة حديد الحجاز، وإبطال مخطَّطات الأعداء.

٦ ـ حاول السُّلطان عبد الحميد التَّضييق على يهود الدُّونمة عندما علم قوَّتهم، ومؤامراتهم ضدَّ الإسلام، ولذلك قام يهود الدُّونمة بوضع خطَّةٍ استراتيجيَّةٍ مضادَّةٍ له، حيث تحركوا ضدَّه على مستوى الرأي العامِّ العثماني، والجيش، وقاموا بدعم المحافل الماسونيَّة للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرِّيَّة، والديمقراطيَّة، وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشِّقاق والتَّمرُّد في الدَّولة، وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدُّونمة يشكِّلون اللَّبنة الأولى لتنفيذ المخطَّطات اليهوديَّة العالميَّة؛ الَّتي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطانيِّ الصَّهيونيِّ في فلسطين.

٧ ـ كان السُّلطان عبد الحميد العائق القويَّ أمام مخطَّطات حكماء صهيون، فعملوا على ترغيبه بالمال، فلم يستطيعوا، وكان يتَّخذ التَّدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، ولم يعط اليهود أيَّ امتيازٍ من شأنه أن يؤدِّي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين.

٨ ـ تحرَّكت الصَّهيونيَّة العالمية لتدعيم أعداء السُّلطان عبد الحميد، وهم المتمرِّدون الأرمن، والقوميُّون البلقان، وحركة حزب الاتِّحاد والتَّرقِّي، والوقوف مع كلِّ حركةٍ انفصاليَّةٍ عن الدَّولة العثمانيَّة.

٩ ـ استطاعت جمعية الاتِّحاد والتَّرقي أن تعزل السُّلطان عبد الحميد الثَّاني عن الحكم، وقد تحصَّلت على دعم من الدُّول الأوربيَّة، واليهود، والمحافل الماسونيَّة للوصول إلى هذا الهدف.

١٠ ـ كانت جمعية الاتِّحاد والتَّرقي لا تستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالميَّة الثانية، واضطرَّ زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا، وروسيا.

١١ ـ استطاع الإنجليز، واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدَّولة العثمانيَّة، وقام الأخير بتنفيذ مخطَّطٍ مرسومٍ، انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربع، وهي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة الإسلاميَّة إلغاءً تامّـًا، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، واتِّخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

١٢ ـ عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها، وإسلامها، وحارب التَّديُّن، وضيق على الدُّعاة، ودعا إلى السُّفور، والاختلاط، إلا أنَّ صوت الحقِّ في تركيا قاوم العلمانيَّة بشدَّةٍ، وظهرت حركة سعيد النَّورسي، وحزب السَّلامة الَّذي أصبح فيما بعد حزب الرَّفاه، وما زال الصِّراع بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والرُّشد والغيِّ، على أشدِّه في تركيَّا.

١٣ ـ إنَّ أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة كثيرةٌ، جامعها هو الابتعاد عن تحكيم شرع الله تعالى الَّذي جلب للأفراد، والأمَّة تعاسةً، وضنكـًا في الدُّنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله ظهرت في وجهتها الدِّينيَّة، والاجتماعيَّة، والسَّياسيَّة، والاقتصاديَّة.

١٤ ـ إن انحراف سلاطين الدَّولة العثمانيَّة المتأخِّرين عن شرع الله، وتفريط الشُّعوب الإسلاميَّة الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر أثَّر في تلك الشُّعوب، وكثرت الاعتداءات الداخليَّة بين الناس، وتعرَّضت النُّفوس للهلاك، والأموال للنَّهب، والأراضي للاغتصاب بسبب تعطُّل أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروبٌ، وفتنٌ، وبلايا توَّلدت على أثرها عداوةٌ، وبغضاء لم تزل عنهم حتَّى بعد زوالهم.

١٥ ـ إنَّ من سنن الله تعالى المستخرجة من حقائق التَّاريخ أنَّه إذا عُصي الله تعالى ممَّن يعرفونه؛ سلَّط الله عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلَّط النَّصارى على المسلمين، وغاب النَّصر عن الأمَّة، وحرمت من التَّمكين، وأصبحت في فزعٍ، وخوفٍ، وتوالت عليها المصائب، وضاعت الدِّيار، وتسلَّط الكفار.

١٦ ـ لقد أصيبت الأمَّة بانحرافٍ شديدٍ في مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء، والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات.

١٧ ـ إنَّ من أعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمَّة الإسلاميَّة ظهور الصُّوفيَّة المنحرفة كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي، تحمل عقائد، وأفكاراً، وعباداتٍ بعيدةً عن كتاب الله، وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد قوي عود الصُّوفيَّة المنحرفة، واشتدَّت شوكتها في أواخر العصر العثماني.

١٨. كانت الفِرق المنحرفة قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين لقيادتهم، ومن أشهر هذه الفِرق، الشيعة الاثنى عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

١٩ ـ أصبح كثيرٌ من العلماء ألعوبةً بيد الحكَّام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف، والمراتب، وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطَّبيعي أن تصاب العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتحجُّر، واهتمَّ العلماء بالمختصرات، والشُّروح، والحواشي، والتقريرات، وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقيَّة المستمدَّة من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثيرٌ من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدَّعوة لفتح بابه تهمةً كبيرةً تصل إلى الرَّمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلِّدين، والجامدين إلى حدِّ الكفر.

٢٠ ـ انتشر الظُّلم في الدولة العثمانيَّة، والظُّلم كالمرض في الإنسان يعجِّل بموته بعد أن يقضي المدَّة المقدَّرة له؛ وهو مريضٌ، وبانتهاء هذه المدة يحين أجلُ موته، فكذلك الظلم في الأمة يُعجِّل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمِّرةٍ تؤدِّي إلى هلاكها، واضمحلالها خلال مدَّةٍ معيَّنةٍ يعلمها الله، هي الأجل المقدَّر لها، ولذلك زالت الدَّولة العثمانيَّة من الوجود، وكذلك ممَّا يعجِّل بزوال الدُّول انْغماسُها في الشَّهوات، والتَّرف، وشدَّة الاختلاف، والتَّفرُّق.

٢١ ـ لقد ترتَّب عن ابتعاد الأمَّة عن شرع ربِّها آثار خطيرةٌ، كالضَّعف السِّياسيِّ، والحربيِّ، والاقتصاديِّ، والعلميِّ، والأخلاقيِّ، والاجتماعيِّ. وفقدت الأمّة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستُعمرت، وغُزيت فكريًّا، نتيجة لفقدها لشروط التَّمكين، وابتعادها عن أسبابه المادِّيَّة، والمعنويَّة، وجهلها بسنن الله في نهوض الأمم، وسقوطها.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٢٢ ـ إنَّ هذا المجهود المتواضع قابلٌ للنَّقد، والتوجيه، وما هي إلا محاولةٌ متواضعةٌ هدفها إبراز عوامل نهوض الأمَّة، وأسباب سقوطها، وبيني وبين النَّاقد قول الشاعر:

إنْ تَجِدْ عَيْبًا فَسُدَّ الخَلَلا جَلَّ مَنْ لا عَيْبَ فِيهِ وَعَلا

أسأل الله العليَّ العظيم ربَّ العرش الكريم أن يتقبَّل هذا الجهد قبولاً حسنًا، وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصَّالحة الَّتي أتقرَّب بها إليه، وأن لا يحرم إخواني الَّذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة! وأختم هذا الكتاب بقول الله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وبقول الشَّاعر:

أَنَـا الْفَقِيْـرُ إِلَـى رَبِّ البَرِيَّـاتِ أَنَـا الْمِسْـكِيْنُ فِـي مَجْمُـوْعِ حَالاتِـي
أَنَـا الظَّلُـومُ لِنَفْسِـي وَهِـيَ ظَالِمَتِـي وَالْخَيْـرُ إِنْ يَأْتِيْنَـا مِـنْ عِنْـدِه ياتـي
لا أَسْـتَطِيْعُ لِنَفْسِـي جَلْـبَ مَنْفَعَـةٍ وَلا عَـنِ النَّفْـسِ لِـيْ دَفْـعُ المضَـرَّاتِ
وَالْفَقِيْـرُ لِـي وَصْـفُ ذَاتٍ لازمٌ أَبَـداً كَمَـا الغَنِـيُّ أَبَـداً وَصْـفٌ لـه ذَاتِـي
وَهَـذِهِ الْحَـالُ حَـالُ الْخَلْـقِ أَجْمَعِهِـمْ وَكُلُّهُـمْ عِنْـدَهُ عَبْـدٌ لَـهُ آتِـي

«سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك، وأتوب إليك»

«وآخر دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين»

المصادر والمراجع

١. السُّلطان عبد الحميد الثَّاني، د. محمَّد حرب، دار القلم دمشق، الطَّبعة الأولى، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.

٢. الدَّولة العثمانيَّة في التاريخ الإسلامي الحديث، د. إسماعيل ياغي مكتبة العبيكان، الطَّبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٣. مذكِّرات السُّلطان عبد الحميد، تقديم د. محمَّد حرب، دار القلم، الطَّبعة الثَّالثة، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٤. في أصول التَّاريخ العثماني، أحمد عبد الرَّحيم مصطفى، دار الشُّروق، الطَّبعة الثَّانية، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

٥. البلاد العربيَّة والدَّولة العثمانيَّة، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠م.

٦. التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية، إبراهيم حلمي بك.

٧. الفتوح الإسلاميَّة عبر العصور، د. عبد العزيز العمري، دار إشبيلية، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

٨. جمال الدِّين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، مؤسَّسة الرِّسالة، الطَّبعة الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.

٩. واقعنا المعاصر، محمَّد قطب، الطَّبعة الثَّانية، ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، مؤسَّسة المدينة المنوَّرة.

١٠. تاريخ التربية التركية، عثمان أركين.

١١. الانقلاب العثماني، مصطفى طوران.

١٢. جريدة ترجمان حقيقة رسالة من الصين.

١٣. صحوة الرَّجل المريض، د. موفق بني المرجة، دار البيارق، الطَّبعة الثَّامنة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤. حاضر العالم الإسلامي، د. جميل عبد الله محمَّد المصري، جامعة المدينة المنوَّرة.

١٥. تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

١٦. اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، مؤسسة الرسالة، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٧. يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، د. نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٨. السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، الجندي.

١٩. الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، محمد مصطفى.

٢٠. السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان.

٢١. العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٢٢. مذكرات إبراهيم تيمو.

٢٣. الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد الغزيز الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م.

٢٤. العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبد الرحمن الحوالي، طبعة ١٤٠٨هـ-١٩٨٧م

٢٥. التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد أبو غدة، دار الرائد، كندا، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

٢٦. الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت ١٩٨٧م.

٢٧. المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

٢٨. الاتجاهات الوطنية، محمد حسين، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٩. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

٣٠. دولة الموحدين، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٣١. الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف: علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة، مكة، دار آل عمار.

٣٢. صحيح البخاري، للإمام محمَّد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر.

٣٣. حركة الإصلاح في عصر السُّلطان محمود الثَّاني، د. البحراوي، دار التُّراث، القاهرة، الطَّبعة الأولى ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م.

٣٤. قراءة جديدة في تاريخ العثمانيِّين، د. زكريَّا سليمان بيُّومي، الطَّبعة الأولى ١٤١١هـ-١٩٩١م، عالم المعرفة.

٣٥. عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، دار فارس، بيروت.

٣٦. الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسين مؤنس، مطبعة حجازي، القاهرة، لطبعة الثانية، ١٩٣٨م.

٣٧. صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج العشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ-١٩٩١م.

٣٨. المجتمع الإسلاميُّ المعاصر، محمَّد المبارك، دار الفكر، بيروت، ط ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.

٣٩. في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

٤٠. مفاهيم يجب أن تصحَّح، لمحمَّد قطب، دار الشُّروق، القاهرة، الطَّبعة السَّابعة، ١٤١٢هـ-١٩٢٢م.

٤١. سنن التِّرمذي، لأبي عيسى التِّرمذي، تحقيق أحمد شاكر، مصطفى الحلبي، القاهرة.

٤٢. مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم.

٤٣. مشكلات الجبل في ضوء الإسلام، محمد المجذوب، طبعة ١٣٩٠هـ.

٤٤. التَّصوُّف في مصر إبَّان العصر العثماني، د. توفيق الطَّويل. مطبعة الاعتماد بمصر، ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

٤٥. الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز.

٤٦. رياضة الأسماع في أحكام الذِّكر والسَّماع، محمَّد أبو الهدى الصَّيادي، مطبعة التمدُّن بمصر ١٩٠٣م.

٤٧. الأعلام، خير الدين الزركلي.

٤٨. خطط الشَّام، محمَّد كرد علي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ.

٤٩. الموسوعة الميسَّرة في الأديان، لندوة الشَّباب العالميِّ، جدَّة.

٥٠. عقيدة ختم النُّبوَّة المحمَّدية، د. أحمد سعدان حمدان، دار طيبة، الرِّياض، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥١. عقيدة ختم النُّبوَّة بالنُّبوَّة المحمَّدية، د. عثمان عبد المنعم، مكتبة الأزهر ١٩٧٨م.

٥٢. قادة الغرب يقولون، جلال العالم.

٥٣. التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م، دار السلام، القاهرة.

٥٤. فقه التمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصلابي، دار البيارق، عمان، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٨م.

٥٥. ابن باديس حياته، وآثاره: د. عمَّار الطَّالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطَّبعة الثَّانية ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٥٦. البدر الطَّالع بمحاسن مَنْ بعد القرن السَّابع، لمحمَّد بن علي الشَّوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٥٧. سدُّ باب الاجتهاد، وما ترتَّب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

٥٨. السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.

٥٩. تفسير الآلوسي، المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمد الآلوسي البغدادي، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة.

٦٠. تفسير الرازي، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٦١. تفسير القرطبي، لأبي عبد الله القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

٦٢. رسالة الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، لابن تيميَّة.

٦٣. المختار المصون من أعلام القرون، محمَّد بن حسن بن عقيل موسى، دار الأندلس الخضراء للنَّشر والتَّوزيع، جدَّة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٤. العالم العربي في التَّاريخ الحديث، د. إسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

فهرس الموضوعات

الإهداء..... ٥

مقدِّمة ٧

عصر السُّلطان عبد الحميد الثاني

المبحث الأوَّل السُّلطان عبد الحميد (١٢٩٣ - ١٣٢٦ هـ-١٨٧٦ - ١٩٠٩ م)...١٣

أوَّلاً: زيارته إِلى أوربَّة مع عمِّه السُّلطان عبد العزيز:.....١٤

ثانيـًا: بيعته للخلافة وإِعلان الدُّستور: ١٦

ثالثـًا: تمرُّداتٌ وثوراتٌ في البلقان:.....٢٧

رابعـًا: الحرب الرُّوسيَّة العثمانيَّة:.....٣٠

معاهدة سان ستفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ): ٣٤

مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ-١٨٨٧م): ٣٦

المبحث الثَّاني الجامعة الإِسلاميَّة ٤٠

أوَّلاً: جمال الدِّين الأفغاني والسُّلطان عبد الحميد: ٤٤

ثانيـًا: الطُّرق الصُّوفيَّة:.....٤٩

ثالثـًا: تعريب الدَّولة: ٥٢

رابعـًا: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة وسفور المرأة: ٥٤

خامسـًا: مدرسة العشائر: ٥٧

سادسـًا: خطُّ سكَّة حديد الحجاز: ٦٠

سياسة التَّودُّد والاستمالة: ٦٦

سابعـًا: إبطاله مخطَّطات الأعداء: ٦٨

ثامنـًا: الأطماع الإيطاليَّة في ليبيا: ٧٠

رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل: ٧٠

المبحث الثَّالث السُّلطان عبد الحميد واليهود ٧٤

أوَّلاً: يهود الدُّونمة: ٧٦

ثانيـًا: السُّلطان عبد الحميد وزعيم اليهوديَّة العالميَّة (هرتزل): ٨٢

المبحث الرَّابع السُّلطان عبد الحميد وجمعيَّة الاتِّحاد والتَّرقِّي ٩٢

المبحث الخامس الإطاحة بحكم السُّلطان عبد الحميد الثَّاني ١٠٢

المبحث السادس حكم الاتِّحاديِّين ونهاية الدَّولة العثمانيَّة ١١٣

المبحث السابع أسباب سقوط الدَّولة العثمانيَّة ١٣٤

• تمهيد: ١٣٤

أوَّلاً: من لوازم الإيمان الصَّحيح الولاء والبراء: ١٣٧

ثانيـًا: انحصار مفهوم العبادة: ١٤٧
ثالثـًا: انتشار مظاهر الشِّرك، والبدع، والخرافات: ١٥٦
ـ انتشار البدع: ١٦٢
ـ انتشار الخرافات: ١٦٣
رابعـًا: الصُّوفيَّة المنحرفة: ١٦٤
خامسـًا: نشاط الفِرق المنحرفة: ١٧٣
سادسـًا: غياب القيادة الربَّانيَّة: ١٧٧
١ ـ الاهتمام بالمختصرات: ١٨٢
٢ ـ الشُّروح، والحواشي، والتَّقريرات: ١٨٣
٣ ـ الإجازات: ١٨٥
٤ ـ وراثة المنصب العلمي: ١٨٥
سابعـًا: رفض فتح باب الاجتهاد: ١٨٧
ثامنـًا: انتشار الظُّلم في الدَّولة: ١٩٠
تاسعـًا: التَّرف والانغماس في الشَّهوات: ١٩٣
عاشراً: الاختلاف والفرقة: ١٩٦
نتائج البحث **٢٠١**

المصادر والمراجع ٢٠٧

السرة الذاتية للمؤلف ٢١٧

كتب صدرت للمؤلف..... ٢١٨

السرة الذاتية للمؤلف

د. علي محمد محمد الصلابي
مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٣م.

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم، والفقه، والتاريخ، والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي على الثمانين مؤلفًا.

كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القرآن الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القرآن في العقائد.

٢٨. السلطان عبد الحميد الثاني.

٢٩. دولة المرابطين.

٣٠. دولة الموحدين.

٣١. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٢. الدولة الفاطمية.

٣٣. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٤. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٥. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٦. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٧. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٨. المشروع المغولي: عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٣٩. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤٠. الإيمان بالله جَلَّ جَلَالُهُ.

٤١. الإيمان باليوم الآخر.

٤٢. الإيمان بالقدر.

٤٣. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٤. الإيمان بالملائكة.

٤٥. الإيمان القرآن والكتب السماوية.

٤٦. السلطان محمد الفاتح.

٤٧. المعجزة الخالدة.

٤٨. الدولة الحديثة المسلمة: دعائمها ووظائفها.

٤٩. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٠. التداول على السلطة التنفيذية.

٥١. الشورى فريضة إسلامية.

٥٢. الحريات من القرآن الكريم: حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٣. العدالة والمصالحة الوطنية: ضرورة دينية وإنسانية.

٥٤. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٥. العدالة في التصور الإسلامي.

٥٦. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٧. الأمير عبد القادر الجزائري.

٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٥٩. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦١. أعلام التصوف السُني: «ثمانية أجزاء».

٦٢. المشروع الوطني للسلام والمصالحة.

٦٣. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ - ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر.

٦٤. الإباضية: مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٥. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: الحقيقة الكاملة.

٦٦. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

٦٧. نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم.. ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٦٨. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».

٦٩. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كليم الله.

٧٠. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.

٧١. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

٧٢. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.

٧٣. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٤. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

٧٥. لا إله إلا الله (أدلة وجود الله وأول المخلوقات)

٧٦. سقوط الدولة العثمانية (الأسباب - التداعيات).

٧٧. سقوط الدولة الأموية (الأسباب – التداعيات).

٧٨. مختصر نشأة الحضارة الإنسانية وقادتها العِظام.

٧٩. النبي الوزير يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ من الابتلاء إلى التمكين.

٨٠. ذكريات لا تنسى.

٨١. الأنبياء الملوك داوود وسليمان عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وهيكل سليمان المزعوم.

٨٢. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد الملك سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقصة الهيكل المزعوم.

٨٣. لوط عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ودعوته في مواجهة الفساد والشذوذ الجنسي وعقاب الله للظالمين

٨٤. تجديد بناء المسجد الأقصى في عهد سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وقصة الهيكل المزعوم

٨٥. نبي الله هود عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأسباب زوال حضارة قوم عاد

٨٦. نبي الله صالح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وأسباب هلاك قوم ثمود.

٨٧. الأبعاد الإنسانية والحضارية في شخصية النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٨٨. نبي الله أيوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

هذا الكتاب

هذا الكتاب جزء من كتابي «الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط»، وقد أفردته من باب الفائدة وتسهيل وصول الحقائق التاريخية إلى المسلمين لعلهم يستخلصون منها الدروس والعبر، ويستفيدون منها في صراعهم مع خصوم وأعداء الإسلام، فهذا الكتاب يتحدث عن الجهود العظيمة التي قام بها السُّلطان عبد الحميد خدمةً للإسلام، ودفاعًا عن دولته، وتوحيدًا لجهود الأمَّة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلاميَّة في معترك السِّياسة الدَّوليَّة في زمن السُّلطان عبد الحميد. ويفصِّل الكتاب في الوسائل الَّتي اتَّخذها السُّلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلاميَّة، كالاتصال بالدُّعاة، وتنظيم الطُّرق الصوفية، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خطِّ سكَّة حديد الحجاز، وإبطال مخطَّطات الأعداء.

ويركِّز الكتاب على جهود الصُّهيونيَّة العالمية في دعم أعداء السُّلطان عبد الحميد كالمتمرِّدين الأرمن، والقوميِّين البلقان، وحركة حزب الاتحاد والتَّرقي، والوقوف مع الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العثمانيَّة، وكيف استطاع أعداء الإسلام عزل السُّلطان عبد الحميد؟ وما هي الخطوات الَّتي اتُّخذت للقضاء على الخلافة العثمانية؟

وفي نهاية الكتاب يهتمُّ الباحث بإبراز أسباب السُّقوط من المنظور القرآني، ليبيِّن للقارئ: أنَّ أسباب السُّقوط عديدةٌ، منها:

انحراف الأمَّة عن مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء، والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشِّرك، والبدع، والانحرافات، وظهور الصُّوفيَّة المنحرفة، كقوَّةٍ منظَّمةٍ في المجتمع الإسلامي، تحمل عقائد، وأفكاراً، وعباداتٍ بعيدةً عن كتاب الله، وسنَّة رسوله ﷺ. وينبِّه القارئَ المسلم عن الفِرق الضَّالة المحسوبة على الإسلام، ويتحدَّث الكتاب عن غياب القيادة الرَّبَّانيَّة كسببٍ في ضياع الأمَّة، وخصوصًا عندما يصبح علماؤها ألعوبة بيد الحكَّام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف، والمراتب، وغاب دورهم المطلوب منهم، وكيف أصيبت العلوم الدِّينيَّة في نهاية الدَّولة العثمانيَّة بالجمود والتَّحجُّر؟

dr.sallabi
dr.ali_alsallabi
alsallabi
alsallabicom
alsallabi1
www.alsallabi.com

ISBN: 978-625-6250-59-8
9 786256 250598
asaletyayinlari.com.tr
asaletyayinlari
دار الأصالة